فريدون صاحبجام

@ketab_n
Follow Me
21.9.2015

المرجومة

رواية

ترجمة : وليد سليمان
تقديم : عبدالله ثابت

الكتاب الذي حكم على صاحبه بالإعدام

قصّة حقيقيّة

فريدون صاحبجام

المرجومة

رواية

تعريب وليد سليمان

مسكيلياني للنشر

Twitter: @ketab_n

ألف ـ راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

المرجومة

Twitter: @ketab_n

المؤلّف: فرَيْدون صاحبجام
عنوان الكتاب : المرجومة
ترجمة: وليد سليمان
تقديم: عبد الله ثابت
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الفنان رؤوف المرفاوي
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 531531622(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 978-9973-833-20-4
الطبعة الأولى: 2015

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

Twitter: @ketab_n

تقديم

في شهر أكتوبر من هذه السنة 2014 كان تنظيم داعش السنيّ قد اقتاد امرأة سورية إلى إحدى الساحات، ليطبّق عليها حدّ الرجم، وأنت تقرأ تفاصيل الحادثة، وترى الفيديو الذي نشره التنظيم نفسه، ستشعر أنّ قلبك ينخلع من مكانه، وسيصدمك هذا الطغيان المتوحش وبشاعة الإجرام البشري الذي يبدو في ظاهره تطبيقاً دينياً، بينما هو في حقيقته سحقٌ صريح للإنسانية وكلّ شيء يمكن أن يمتّ إليها بصلة، بما في ذلك الدين نفسه.

بعد الحادثة بشهر، هاتفني الصديق شوقي العنيزي صاحب دار ميكسلياني التونسية للنشر، مقترحا عليّ كتابة تقدمة لرواية من إيران، أقامها مؤلّفها بكامل أحداثها على واقعة بهتانٍ ورجم فظيعة، قال لي إنّ الرواية اسمها «المرجومة»، وإنّ فكرة التقديم لها جاءت من إحساسه بالهمّ المشترك مع فريدون، صاحب الرواية. وقبل أي شيء؛ الإسهام في إطلاع القارئة والقارئ العربيّين على أعمالٍ كهذه، والوقوف على امتحاناتها وتأمّلها. شعرت حينها بفرح وثقلٍ بالغين ومفاجئين. فرحت لأن الشراكة في قول كلمة حرّة وصادقة، في وجه أيّ ظلم، مهما اختلفت وجوهه وعمائمه، تملأ القلب والضمير، وثقل.. لأنّ تقديم الأعمال مغامرةٌ ومسؤولية واختبار، وإذا ما قبلتَ بخوض هذا فإنك مثل من تقع عليه قرعة القدر كي يفتح باب غرفة غامضة ومقلقة، في بيت الرواية.

في السماء، وفي طريقي من جدّة إلى باريس، منتصف الليل المفضي لصباح العشرين من نوفمبر 2014 كنت أقرأ مسوّدة هذه الرواية «المرجومة»، التي نقلها الروائي الإيراني فريدون صاحبجام، عن قصة

Twitter: @ketab_n

حقيقية، وقعت في مناخ ما بعد الثورة الخمينية الشيعية 1979 في إحدى القرى الصغيرة في جنوب شرقي إيران.. «كوباييه». أفزعني التطابق المريع بين مشهدي الرجم/الجريمة، في الرواية وبين ما رأيته في فيديو رجم المرأة السورية قبل شهر. كانت الصور التي تخلقها الرواية تركب تمامًا على مقطع الفيديو، حتى في غضب والد الفتاة، في انكساره وتنصّله من أبوّتها، محوًا لعاره أمام الجموع.. في تلك اللحظة الوحشية، بدءا من اقتيادها إلى الحفرة، وانتهاءً بانفلات هياج المتحلقين وحجارتهم على رأس المرأة العزلاء وجسدها، المطمور ثُلثاه في الحفرة التي يُباد فيها الراجم والمرجومة.

فريدون صاحبجام، صاحب الرواية، كان قد حُكم عليه غيابيًا بالإعدام من قبل السلطات الإيرانية، سنة الثورة الخمينية 1979 باعتباره خائنًا. نشر وهو في فرنسا كتابه الأول «بسم الله الرحمٰن الرحيم» عام 1983، وقد كان جمعًا لشهادات أناسٍ عايشوا بدء الثورة، ثم نشر في عام 1985 كتابه «لا دموع بعد لأبكي»، وفيه يتحدث عن الشبان الذين زجّ بهم النظام السياسي الإيراني في الحرب. ثم تسلّل فيما بعد إلى إيران وهو المحكوم عليه بالإعدام، وفي إحدى تخفّياته، وهو يجول بالقرى الإيرانية، نقل حادثة رجم في «كوباييه»، لم تكن الأولى ولا الأخيرة، لكنه استقصى القصة كلّها، ثمّ أخرجها في سنة 1990 في روايته «المرجومة»، مُفزِعاً العالم بما حدث في الساعات الأخيرة لسحق المرأة والمجتمع معًا.

بين حادثة الرواية في ذلك الوقت، ولم تكن الأولى، وحادثة داعش التي لم تكن الأولى أيضًا، وبالرغم من الفاصل الزمني بينهما، والاختلاف المذهبي الحاد بين مرتكبيها، تطابقٌ يكاد يكون تامّا، فهما تنطلقان من مكمنٍ واحدٍ وجوهر خطابٍ واحد، تحمله جماعات الإسلام السياسي المتطرفة التي تُخرج الإسلامَ والمذهب من وظيفته التعبّدية والفقهيّة، إلى استعماله وتكييف تعاليمه وقودًا سياسيا، فارضة أكثر التأويلات الدينية

Twitter: @ketab_n

قسوة على المجتمع الذي يعيش تحت هيمنتها، حتى تنزع في النهاية عن المجتمع هويته الخام، وتفرض عليه قسراً نظامها وهويتها وسلوكها، في مختلف مناحي مؤسسات الدولة، والحياة العامة، وبالطبع فإنّ الضحية الأكثر خسارةً ودفعاً للثمن، الضحيّة التي من خلالها تُكسر إرادة الناس، وتزور علاقتهم وحياتهم، ويُزرع الرعب والفزع في كل بيت وشارع.. هي المرأة، وليس هناك حالة جمعية، تُدفع الجماهير عبرها دفعًا، بخطاب يُلبّس القدسية، لمسخ نفسها بنفسها، من خلال سحق امرأة منها، مثل الرجم، فيبدأ الأب والأقارب والأبناء ثم عموم الناس في قذف الحجارة عليها حتى قتلها. تموت المرأة لكن المجتمع لا يتوقف عن رجم نفسه، رجم هويته وتركيبته ومعناه. هكذا تعمد مثل هذه الجماعات بنفس الطريقة – وهنا لا أهمية لاختلاف المذهب – وبكل قسوة ممكنه، لاسيما في بدايات النشأة، لتمكين وحشيتها وقدسيتها معًا في وجدان الناس، عبر هذا القدر من الشناعة. دون الالتفات أبدًا إلى حقيقة ما إذا كان الرجم موجوداً في الإسلام أم لا، وهل طبقه النبيّ (ص) أم لا، وماهية ظروفه، وهل شرّعه وجعله حدًّا في الإسلام[1]، كما أنّه لا يهمّهم بحال أنّ الشروط التي يُستكمل فيها عقاب الزاني أو الزانية تكاد تكون متعذرة التحقّق، وعلى رأسها استحالة الشهود الأربعة.

قبل أن أترك القارئة والقارئ لصفحات هذا العمل الموجع، لا بدّ من القول إنّ المسلمين اليوم، في أمسّ الحاجة، أكثر من أي وقتٍ مضى، وبكل طوائفهم، لقراءة المراجعات الفكرية الجادة لتراثهم التي ساءلته، وعملت على تخليصه من التوحّش والدموية اللّذين يضربان جوهر الدين ومقصده الإنساني، فكلّ المقولات التي تنسف الفرد واستقلاليته، امرأةً ورجلاً، وتستعدي الفنون والعقل والجمال، لا يمكنها أبداً أن تكون شيئاً سويًّا، ونسبتها إلى الدين تصطدم مباشرةً بكونه متمّمًا للإنسانية.

(1) لم يرد الرجم في مصدر الإسلام الأساس؛ القرآن الكريم.

Twitter: @ketab_n

أمّا أنت يا فريدون صاحبجام (وقد رقدت رقدتك الأخيرة، عن خمسة وسبعين عاماً سنة 2008 بفرنسا، السنة نفسها التي تحولت فيها روايتك «المرجومة» إلى عمل سينمائي عالمي، للمخرج قرش نورسته).. فقد تمنيت أن أكتب لك رسالةً شخصيةً طويلة، فتحيّة الإجلال والإكبار إليك، إلى قلبك القوي، إلى كل كلماتك الشجاعة، إنْ في هذه الرواية وإن في غيرها، تحية إليك وإلى كل كلمة كدت تدفع حياتك ثمناً لها.

أخيراً..

هذه رواية كبيرة، وعملٌ عظيم، وكتابةٌ يُستحى منها..

عبد الله ثابت

جدّة في 2014/12/5

Twitter: @ketab_n

الإهداء

إلى صافيناز،
إلى كارولين وسيسيل
إلى ميشال، التي أصرّت أن أسرد هذه الحكاية،
و لم تعد هنا لتقرأها.

Twitter: @ketab_n

لا تكن مثل المنافق
الذي يظنّ أنه يخفي مكره
بترتيـلـه الـقرآن عـالـيـا

حافظ شيرازي

Twitter: @ketab_n

- 1 -

في جنوب شرقيّ إيران، على بعد حوالي ستّين كيلومترا من مدينة كرمان، تضمّ قرية «كوباييه» -التي يعني اسمها «على سفح الجبل»- بيوتا من الآجر مسقوفة بالقش. لم يكن من السهل بلوغ القرية لوقوعها بين سلسلة جبال وعرة، ولكي يتسنّى ذلك يتوجّب اتّباع الطريق الوحيدة غير المعبّدة التي تلتفّ مثل متاهة على طول عشرات من المنعطفات المغبرّة والخطيرة. صبيحة السوق الأسبوعيّة تصل حافلة قديمة إلى «كوباييه» مترجرجة بركّاب قلائل، أغلبهم قرويّون يأتون لعرض سلعهم المكدّسة على سطح العربة، وشراء سلع أخرى سيبيعونها مجدّدا في السّهل.

يحدّ القرية مجرى مياه شديد البرودة وغابة تتكوّن من أشجار سندر وزان وزيتون. وبعيدا، تمتدّ حقول ومروج ترعى فيها خرفان وبضع بقرات.

في هذا المكان ولدت ثريّا سنة 1951.

لقد سُمّيت ثريّا لأنّها ولدت يوم تزوّج الشاه أميرة تحمل الاسم نفسَهُ. كانت البلاد آنذاك في عيد. وبدا مرتضى رمضاني، الذي تزوّج في سنّ متقدّمة، فخورا بهذه الهبة الإلهية: «ستكون أجمل فتاة في القرية وسأخصّ بها أفضل أولادنا. ولكن عليه أن يكون جديرا بها!»

أمّا أمّها شوكت فقد كانت امرأة تقيّة عليلة الجسم اختبرت معنى الأمومة ولم تتجاوز الثالثة عشرة بعد، فأنجبت خمسة أطفال مات اثنان منهم في سنّ الرّضاعة، وكان الطبيب الذي قدم من كرمان وفحصها قد أكّد لمرتضى بحزم أنّ أيّة ولادة أخرى قد تودي بحياتها. عندئذ اتّخذ مرتضى محظيّة مثلما يبيح له القانون، وهي ضرّة آواها في منزله وأنجبت له أربعة أطفال كانوا يعيشون في انسجام. ولكنّ شوكت التي

Twitter: @ketab_n

ظلّت الأثيرة لدى زوجها أوكلت إلى الضرّة كلّ الأعمال الحقيرة، فأوفت الأخيرة بواجباتها طوال سنوات دون أن تصدر عنها شكوى في يوم من الأيّام. وعندما شلّ المرض جسم شوكت كليًا، اعتنى الولدان الأكبران وثريّا بالبيت. وكان ثلاثتهم قد تعلّموا القراءة والكتابة ليتمكّنوا من تلاوة القرآن وقراءة اللاّفتات.

لم تكن مدرسة القرية تفتح كلّ يوم لأنّ المعلّم كان خزّافا في الوقت نفسه، وكان الأطفال يذهبون للّعب في الحقول عندما يكون منهمكا في إنضاج الخزف. وفي أحد الأيام، أراد غربان علي، وهو طفل في الثالثة عشرة من عمره، أن يصنع طيّارة من ورق. لقد قضّى ساعات وهو يحاول صنع هذه اللّعبة مستعينا بقطع من الخشب وأوراق ملوّنة وبعض الغراء، ولكنّها أبت أن تطير. فمرّة يكون الخشب ثقيلا جدّا، ومرّة تمزّق الرّيحُ الورقَ، ومرّة أخرى لا يثبّت الغراء شيئا، وفي بعض الأحيان يتمزّق الخيط. وبعد مجهودات كبيرة، نجح في صنعها، وأتت اللّحظة الحاسمة أخيرا. فاجتمع في المرج ما يقرب من عشرين طفلا أعمارهم بين خمسة أعوام وخمسة عشر. وكانوا يحتبسون أنفاسهم عندما طارت الطيّارة فجأة، بطيئة ومهيبة في جوّ احتفاليّ. وتمكّن كلّ الأطفال من أن يجرّبوها، الواحد تلو الآخر.

ثم جاء دور ثريّا، وكان عمرها خمس سنوات، فانطلقت في المرج وَجِلةً واللّعبة في طرف الخيط الطويل. وفيما كان نظرها مشدودا إلى الحشد الذي راح يشجّعها، عثرت في صخرة ووقعت. حينئذ أفلتت منها اللّعبة وحلّقت في الفضاء ثمّ هوت. وعندما تمكّنت ثريّا من الوقوف على قدميها بكثير من المشقّة بعد أن انسلخت ركبتها، كان رفاقها قد اختفوا...

ولاذت الطفلة بمنزلها.

ثم خرجت مجدّدا بعد تضميد جرحها بفترة قصيرة. وما كادت تخطو الخطوة العاشرة، حتى خاطبها الأطفال وهم يلهثون:

Twitter: @ketab_n

-تعالَيْ لتَريْ ماذا فعلتِ... إنّك حمقاء... ومن الآن فصاعدا، لن تلعبي معنا أبدا...

ولم تعرف الصّبيّة كيف تدافع عن نفسها.

وصاح بها غربان علي:

-هيّا، تعالي، انظري أين أوقعتها.

وأمسك بالطّفلة من معصميها ثمّ دفعها عنوة نحو سفح القرية وكان جميع الأطفال في أعقابهما. كانت طيّارة الورق عالقة في قمة شجرة زان، على ارتفاع يجعل من الصعب إخراجها من مكانها. ولم يكن لأطول سلّم في «كوبابيه» أن يتجاوز أربعة أمتار، أمّا هراوات جَنْي الجوز فلا يمكن لطول أيّ واحدة منها أن يكون مناسبا. إضافة إلى أنّ أي محاولة لتسلّق الشجرة كانت ضربا من المستحيل، فأغصانها غير قويّة لكي تتحمّل وزن صبيّ. أمّا فكرة هزّ الشجرة فقد كانت مستبعدة، إذ أنّ جذعها من الضخامة بما يزيح عن الذهن مجرّد النيّة في تحريكه.

-عليك أن تصنعي لنا طيّارة ورق أخرى... وإن لم تفعلي، فإنّك لن تلعبي معنا أبدا.

كان ذلك هو قرار غربان علي، بموافقة من الأطفال الّذين راحوا يرمون ثريّا بالرّمل والحصى، فخبّأت الفتاة رأسها في تنّورتها منتظرة هدوء العاصفة. كانت تشعر بالغمّ، ولكنّها لم تشأ البكاء خصوصا أمام أصحابها. فكبحت زفرتها وأغمضت عينيها. وحين استتبّ الهدوء من جديد، رفعت رأسها فلاحظت أنّ ابنة خالتها «معصومة» هي الوحيدة التّي بقيت جالسة إلى جانبها.

-لا تهتمّي... سأساعدك في صنع واحدة أخرى. سوف ترين، وستكون أجمل بكثير.

-أنا أمقت غربان علي، أكرهه، إنّه شرير... ولا أريد أن أراه ثانية إلى الأبد...

Twitter: @ketab_n

عندما بلغت ثريّا سنّ العاشرة، أخذها أبواها إلى المدينة عند «الأرباب»[1] المالك العقاري لكي تواصل تعليمها.

كان الأطفال يأكلون ويسكنون عند أسيادهم ولكنّهم ما كانوا يقبضون أجرة، وكانوا ينامون قليلا ويعملون أكثر من خمسَ عشْرَة ساعة في اليوم. دون اعتبار اللّيالي التي يُوقَظون خلالها من أجل أمر تافه.

لم تكن الطفلة تحبّ «الأرباب»، ذلك الرجل البدين الوسخ والمتكبّر الذي كثيرا ما كان يضربها. ولكن ماعساها أن تفعل في مواجهة شخص في جبروته، فضلا عن أنه يخفي دائما بندقيّة في سيّارته؟ فكانت تخفض رأسها، وتعتذر ثمّ تقبّل يد سيّدها. وكان على الصّبيّة، طوال سنوات ثلاث، أن تعاني من كلّ إهانات هذا الرّجل الغضوب وتعنّته وأن تتحمّل تهجّماته كلّما غابت زوجته. وكانت الحكاية نفسها تتكرر في كلّ مرّة: يجيء بالطفلة إلى غرفته، فيعرّيها ببطء، ويقول لها كلمات ما كانت تفهمها، وإذ تصير عارية تماما كان يقبّل صدرها الناهد مستمنيا، فيما الصغيرة التي لم تكن تفهم شيئا، تلازم الصّمت ولا تبدي حراكا.

لقد كان يهديها حبّات من الفستق والتمر لقاء ذلك، وفي الفجر تعود إلى عملها.

طوال هذه السنوات الثلاث، لم تر ثريّا والديها، ولكن في بعض الأحيان كان يأتي أحد أخويها لزيارتها. فيُسمح لها بقضاء ربع ساعة معه في الحديقة.

كان يتوجّب حتما على ثريّا أن تظلّ عذراء حتى زواجها، وكان الرجل البدين يدرك ذلك، وإلاّ فإنّ الفضيحة ستكون مدوّية ويغدو مجبرا على تقديم تعويض لوالد الصبيّة. فقد كانت السلطات في تلك الفترة، أي قبل الثورة بزمن طويل، تتسامح في كلّ شيء إلاّ ما يتعلّق بالانتهاكات الجنسية.

---

(1) «الأرباب»: رجل موسر له الكثير من الممتلكات العقاريّة.

Twitter: @ketab_n

كان ابنا المالك يسخران من ثريّا فيقرصانها من صدرها ويمرّران أصابعهما على مؤخرتها، غير أنّهما ما كانا يذهبان إلى أبعد من ذلك، لعلمهما أنّها ملك لأبيهما. وذات يوم، تلقّى أحدهما صفعة عظيمة لأنّه مدّ يده على الصبيّة بينما كان أبوه يدخل الغرفة. وهربت ثريّا فزعة إلى القبو واختبأت هناك.

وبعد أسبوع رجعت إلى «كوباييه» نهائيا.

كانت ثريّا قد نضجت تقريبا عندما عادت إلى «كوباييه». لقد بلغت الثالثة عشرة من عمرها فتقرّر تزويجها لغربان علي الذي كان في العشرين من عمره، لقاء عدد من المواشي وقطعة أرض وسجّادات.

عندما رأى غربان علي ثريّا من جديد لم يعرفها، وعندئذ أحسّ بأوّل انفعال له كرجل، فهو لم يعش أيّة تجربة مع امرأة. أوّلا لأنّه لم يكن يوجد في القرية نساء يمكن الالتقاء بهن، وثانيا لأنّه لم يذهب أبدا إلى المدينة، وأخيرا لأنّه كان مُعدَما دائما فلم يتمكّن من الذهاب إلى ماخور كرمان. من المؤكّد أنّ القرية ماكانت تَعدم الفتيات، غير أنّه كلّما طلب إحداهنّ وجدها إمّا صغيرة جدّا وإمّا لا تملك مهرا أو أنّها في غاية القبح.

كانت الساحة، في كلّ مرّة يقصد فيها الرّجل البدين القرية، تحتشد بالسكان المرحبين بالسيّد الذي يملك كلّ المنازل والحقول والمراعي وخصوصا ماء النّهر ويؤجّر أراضيه للفلاحين. كانوا يأتون لتقبيل يديه أو قدميه علامةً على خضوعهم له ويسألون الله أن يقي غضبُه «الأرباب» وعائلتَه وأن يبعد عنهم المصائب. وكان كلّ واحد منهم يحمل حقيبة أو صرّة أو «سماورا» أو مؤنا إلى المنزل الكبير الواقع في مكان شبه منعزل. وفي نهاية المساء يقدّمون له أطفالا آخرين.

في خريف سنة 1964، بعد رجوعها من كرمان بوقت قصير، زُوِّجت ثريّا لغربان علي. وبهذه المناسبة قدم «ملاّ» صحبة فرقة موسيقية متجوّلة من المدينة الكبيرة.

Twitter: @ketab_n

ارتدى أهل القرية أجمل ملابسهم، وحلق الرجال شعورهم قصيرةً، وتزيّنت النساء بحليّ برّاقة. وفي آخر النهار، أوقِدَتْ نار هائلة في ساحة القرية، حيث كان رجل الدين يترأس الحفل. وجلس «الأرباب» وعائلته مُنعّمين على عدد وفير من السجّادات والوسائد. وبعلول الليل بدأ الاحتفال.

ظلت ثريّا محاطة بنساء القرية بعيدة عن الأنظار. خالتها «زهرة»، التي أرادت أن يكون الاحتفال رائعا، كانت بلا أدنى شكّ أكثرهنّ نشاطا. فقد تفنّنت في تزيين الفتاة، فشذّبت لها حاجبيها ووضعت زينة حمراء على شفتيها ووجنتيها، وقليلا من الحنّاء على شعرها، كما لمّعت لها أهدابها وكحّلت لها عينيها وأحاطت جبينها بحلية من ذهب وفيروز، ثم صبغت لها أظفارها وأهدتها أجمل «تشادور» لديها حيك من خيوط حريريّة وفضيّة:

«لأنّي أريدكِ أن تكوني أجمل عروس عرفتها القرية».

ومثلما تقتضي العادة، غطّت وجه العروس ببرقع ارتدته طوال الحفل، كي لا يرى أحد وجهها قبل نهاية مراسم الزواج.

و خلال ذلك، كان الحفل قد بلغ أوجه.لقد ذُبحت ثلاثة خرفان، وكانت الذبائح الثلاث تدور ببطء حول النار بعد أن سُفّدت ودهّنت، وكانت النار ترسل آلاف الشرارات نحو السماء. واسترسل الموسيقيون في العزف، في حين راح الرجال يرقصون ويدورون في أعقاب بعضهم. أمّا النّساء اللّواتي اجتمعن بعيدا عن الرجال، فكنّ يصفّقن فرحات. وقُدّم الطعام «للأرباب» في أوانيه، ولكنّه امتثل لعادات أهل القرية وتناول لحم الخروف والأرز بيديه. ومع بشائر الفجر الأولى، انطفأت النار وذهب الجميع للنوم. وقضّى العروسان آخر ليلة لهما في منزل أبويهما. وفي الغد، عقد «الملاّ» قران الشابّيْن في مقرّ«الكدخدا»[1].

(1) «الكدخدا»: عمدة يعيّنه أهل القرية لتسيير شؤونها.

Twitter: @ketab_n

سأل رجل الدّين الفتى ثلاث مرات ما إذا كان يرغب في الزواج من ثريّا. فلم يجب في المرّة الأولى و الثانية. وفي الثالثة، قال نعم. وسُئلت الفتاة السؤال نفسه ثلاث مرّات. فأعلنت رضاها في المرّة الثالثة.

وقَبَّلا المصحف الذي أُعطي لهما، ثمّ وقّعا باسميْهما على دفتر، وقرأ «الملاّ» عقد الزواج. وفي الواقع، كانت ثريّا هي وحدها التي حملت مهرا، وأصرّ «الأرباب» من ناحيته على أن يهدي لخادمته القديمة «سماورا» جميلا وسجّادة ومصباح بترول وبعض المال.

أمّا غربان علي، فإضافة إلى قلادة أعطتها له أمّه ومدفأة لليالي الشتاء الطويلة وسجّادة قديمة بالية، لم يكن له غير الالتزام بالعمل والاعتناء بزوجته وبعائلة المستقبل.

وفي المساء، أشرفت زهرة خانم بكلّ ما لديها من سلطة على تزيين العروس. فحُممت الفتاة ونُقّيت من الشعر وعُطّرت. وعندما اختلى بها زوجها أخيرا، لم ينبس بكلمة واحدة. بل أطفأ الفانوس الوحيد الموجود في المنزل، وارتمى عليها مباشرة وجامعها بكلّ قوّة. بعد عشرة أشهر ولد حسين علي، وتلاه مولود ميت ثمّ ولد حسن علي بعد سنتين. ووُلِدت طفلتان هما مريم وليلى، ثم طفل آخر ميت، وأطفال آخرون. فعلى مدى أربع عشرة سنة، وضعت ثريّا تسعة أطفال بين أحياء وميّتين. ووُلدت «خوجسته» الصغيرة وهي آخر رضيع لها، في السنة التي اندلعت فيها الثورة.

كان غربان علي كسولا بطبعه مثل أبيه، ولكنّه دائم الترصّد للفرص السانحة والأرباح التافهة. وكان كلّ ما هو خارج عن القانون يثير اهتمامه، فهو أحيانا يسرق الدواب وأحيانا يمارس الصّيد بشكل غير قانونيّ، وقد مكّنته الثورة الإسلاميّة والتغييرات التي أحدثتها في قريته من أن يضطلع بدور هام.

كان يستقلّ الحافلة إلى المدينة مرّة في الشهر من أجل أعماله. ولم

Twitter: @ketab_n

يحصل أبدا أن عرفت ثريّا طبيعة تلك الأعمال، غير أنّه في كلّ مرة يؤوب فيها إلى القرية تكون في جيبه بعض المئات من الريالات، تخصص لشراء طعام بالكاد يكفي العائلة.

وشيئا فشيئا، هجر غربان علي زوجته. وتردّدت أقاويل في القرية مفادها أنّه يقيم علاقة مع امرأة مطلقة من المدينة، شقيقها على اتصال دائم بمهرّبين من «زهدان».

وكان هناك من يتحدّث عن حجارة كريمة وسجائر أمريكيّة وخمر وربّما أيضا مخدّرات. وقد تطوّر الأمر إلى حدّ قدوم رجال شرطة من «كرمان» لاستجواب العمدة ثمّ غربان علي ولكنّهم عادوا خائبين. لقد قُتل رجل في الوادي أثناء مشاجرة، وصادف أنّ زوج ثريّا كان موجودا هناك. وعليه فقد مُنع من الذهاب إلى المدينة. ومنذ ذلك الحين، صار مُقلاّ في الكلام وأكثر عنفا، ميّالا إلى ضرب زوجته وأطفاله باستمرار. وفي إحدى المرّات، رجعت ثريّا إلى أمّها دامية الوجه، حاملة أصغر أبنائها بين ذراعيها، رافضة على مدار أسبوع كامل أن تعود إلى بيت الزّوجيّة. وكانت زهرة هي التي تذهب لبيت الزوج الغاضب لكي تعدّ الطعام وتقوم بالشؤون المنزليّة إلى أن ذهب غربان علي للاعتذار من صهره.

وبمرور السنوات، ذبلت ثريّا. وصارت تبدو وكأنّها أكبر من سنواتها الثماني والعشرين عندما أطيح بالنظام القديم وأعلنت الجمهوريّة. واختفت على الفور كل صور الشاه و«الشاهبانو»[1]، وعوّضت بصور شخصيّات عبوسة ذات لحيّ وعِمم.

لم يتغيّر شيء في القرية، باستثناء خبر مفاده أنّ الدولة أباحت من جديد تعدد الزوجات. حينئذ، هجر غربان علي زوجته وانقطع حتّى عن ملامستها. ولم تكن هي تتذمّر من ذلك. فنادرا ما كان غربان يظهر في منزله، وأحيانا كان يختفي في الوادي ثلاثة أيّام أو أربعة. وهكذا غدت ثريّا محتجبة

(1) الشاهبانو: زوجة شاه إيران.

Twitter: @ketab_n

ومتكتّمة بشكل متزايد كما لو أنها تخجل من عجزها عن استبقاء زوجها.

و ذات يوم أسرّت لأمّها:

«أمّي أريد أن أموت... أريد أن أموت، فما عدتُ أقدر على تحمّل شتائمه وضربه...»

ولأنّ تقاليد القرية لم تكن تسمح بتدخّل الوالدين في شؤون صهرهما العائليّة فقد كانت شوكت خانم تكتفي بالصمت، عاجزة عن إيجاد كلمة مواساة واحدة.

مع مرور بعض الوقت صار الرجال يتمتّعون بسلطة مطلقة ويتّخذون القرارات بمفردهم.

وكان يتردّد على الألسن أنه مادام غربان علي يتسكّع في المدينة، عوضا عن البقاء في منزله، قرب أهله، فذلك يعني أنّ ثريّا زوجة سيّئة.

وكانت ثريّا تشعر بالخجل عندما تعبر ساحة القرية. فما عاد يحيّيها أحد، وصار الناس مقلّين في التحدث معها متحاشين حتى المرور بقربها. ما الذي كان يعاب عليها؟ وماذا فعلت؟ كلّ ما في الأمر أنّها لم تحسن استبقاء زوجها مثل نساء «كوبابيه»الأخريات، وأنّها خفضت رأسها عوض رفعه، وأنّها كانت عاجزة عن حلّ مشاكلها دون أن تلجأ إلى والديها بشكل دائم، وأنّ ابنها الأكبر كان لصّا وكذّابا وينشر الفوضى في القرية. إنّها باختصار، زوجة سيئة وأم لا تحسن تربية أولادها.

ووحدهن صديقات قليلات كنّ يتعاطفن معها بشكل خفيّ، دون أن يجرؤن على استقبالها في منازلهنّ.

سجنت ثريّا نفسها في صمت كلّي، فلم تكن تتكلّم إلاّ مع ابنتها الصغرى وزهرة، وكانت تكتم دموعها وتلازم الصمت عندما يضربها زوجها وابنها الأكبر.

وعندما ماتت أمّها، احتجبت في منزلها رافضة إعداد أيّ طعام طيلة أسبوع. ثم عادت إلى سالف نشاطها في اليوم السابع، عندما أتى والدها

Twitter: @ketab_n

لزيارتها وأهداها قلادة أمّها.

قبّلت ثريّا الحلية، ثم قبّلت يد والدها وأسرّت له وهي ترافقه إلى عتبة المنزل:

«يا أبي، لا تنس أني أحبّك...»

ثم أغلقت الباب خلفه.

ذات يوم، حينما كان جميع أهل القرية قد تركوا «كوباييه» للاحتفال بـ«السيزدَهْ بدر»[1] بعيدا عن منازلهم، مثلما تقتضي العادة - وذلك لكي تطهّر نفس خيّرة الجدران من أدران السنة الماضية- سمعت ثريّا، التي بقيت في منزلها، بابا ينصفق. وتوجّهت نحو النافذة مندهشة: كان غربان علي قد نزل للتوّ من سيّارة أمريكيّة ملك «الأرباب» ترافقه امرأة. وكان الاثنان يتوجّهان نحو المنزل فسارعت ثريّا بالتخفّي. سمعت الباب ينفتح، ثم ينغلق برفق. ووصلتها وشوشات تكاد لا تُسمع، وكان الاثنان يضحكان وقد بدا المرح على حديثهما، ثم خيّم صمت فهمت معناه. وأحسّت بالهوان. كيف يمكن أن يحضر امرأة غريبة إلى منزل زوجته لكي يضاجعها على فراش الزوجيّة، وهي مومس من تلك اللّواتي يؤجّرن أجسادهنّ مقابل المئات من الريالات، في حين أنها بالكاد تملك ثمن طعام أطفالها؟

وبعد نصف ساعة توجّهت السيّارة من جديد نحو السهل. وعندما خرجت ثريّا من مخبئها، كانت رائحة مساحيق وعطر مقزّزة تفوح في المنزل. وفيما كانت ترتّب المكان قليلا، دخلت «زهرة خانم»، فتفرّست كلاهما في الأخرى، قبل أن تقول المرأة العجوز ببساطة:

«لقد رأيت كلّ شيء... أنا لم أخرج من بيتي اليوم... فلا تقولي شيئا... أنا هناك!»

واختفى الشبح الأسود بنفس السرعة التي أتى بها.

---

(1) السيزدَهْ بدر: اليوم الثالث عشر بعد العام الجديد الإيراني وفيه يترك الناس منازلهم لتطهيرها.

Twitter: @ketab_n

كانت ثريّا تعلم أن غربان علي يتردّد من حين لآخر على مومسات في كرمان. وفي أحيان كثيرة، بعد رجوعه من المدينة، كانت عطور مجهولة تفوح من ملابسه. ولكنّه لم يسبق أبدا لامرأة غريبة أن رقدت على فراشهما.

وكانت تعلم أيضا أنه يقوم بنشاطات مشبوهة خارج القرية، فقد بدت عليه علامات الترف منذ بعض الوقت. كما علمت أن «الأرباب» قد اعتقل. فكيف أصبح زوجها يقود سيّارته؟ وأين تعلّم السياقة؟ ومع من؟

قطعت ثريّا كلّ علاقة لها مع الخارج، ولكنّها ظلّت تستقبل أباها في منزلها، و كذلك زهرة خانم كاتمة أسرارها و«الكدخدا».

لم تعد ثريّا تصرخ عندما يقدم غربان علي من المدينة ناشرا الفزع في بيته، محطّما كلّ ما يقع تحت يديه، بل كانت تقاسي في صمت وتبكي دون صوت، وتختبئ إلى حين تهدأ العاصفة. أمّا أطفالها الصغار فكانوا يصرخون من الألم.

وقد لاحظت أنّ زوجها و«الملاّ» كثيرا ما كانا يختليان لوقت طويل، كما لو أنّ تواطؤا غريبا كان يجمعهما. ومن الجليّ أنّ غربان علي كان مفتونا بثقافة رجل الدين وبترفه وسلطته. فكان يحسد الشيخَ حسَنًا على أناقته والبراعة التي فرض بها نفسه في القرية. وكانت محاولات غربان علي التشبّه بـ«الملاّ»، ولو قليلا، تبعث على الضحك. فقد ظلّ يتكلّم مثل قرويّ ويرتدي الملابس المهملة نفسها ويرسل لحية شعثاء. وكان نادرا ما يذهب إلى الحمّام، فتنبعث منه دائما رائحة نتنة رغم الكولونيا الرخيصة التي يرشّها على نفسه. أمّا الشيخ حسن فقد فهم أنّ غربان علي بإمكانه أن يسدي له خدمات كثيرة وأنّه يعمل ما في وسعه لكي يخدمه. فكان يخاطبه بلغة مختلفة، ويستعمل معه عبارات بسيطة، وكلمات أكثر شعبيّة، وكثيرا ما رأت ثريّا الرجلين يربّت كلاهما على كتف الآخر ويقهقهان ويتبادلان بطاقات وظروفا.

Twitter: @ketab_n

وكان «الملاّ» يُظهر لثريّا لطفا مبالغا فيه، أمّا هي فكانت تمقت نظراته الوقحة وتحبط كلّ محاولاته للتّحدّث معها. غير أنّه في أحد الأيام، وبينما كانت وحيدة في منزلها، دخل الشيخ واستأذن للجلوس ثم قال لها:

-ثريّا خانم، لقد طلب منّي غربان علي أن أكلّمك...

لقد توقعت هذه المقابلة وانتظرتها منذ بعض الوقت. وأخرج حسن مسبحته من جيبه وواصل بعد أن وضع مصحفه على الطاولة:

-لقد جاءني زوجك واشتكى إليّ من أنّك لا تكلّمينه، وتتجاهلينه، أي أنّك تهملينه في بعض الشؤون...

ونظرت إليه ثريّا واجمة دون أن تخفض عينيها.

-إنه زوجك... وله عليك كل الحقوق... وأنت تعلمين ذلك حقّ العلم، كلّ الحقوق. فلا يحقّ لك أن ترفضي له طلبا. إنّه زوج صالح وخدوم ويأتيك بالمال، و يحبّ صغاره.

تملّكت الشابة رغبة في الضحك، ولكنّها تمالكت نفسها، ولم تستطع كبح تكشيرة صغيرة أخفتها تحت حجابها.

-إنّ غربان علي يودّ أن يصل إلى اتفاق معك. وقد تحدّثنا في الأمر طويلا وأعتقد أن العرض شريف. حسنا...

ابتلع الشيخ حسن ريقه، وشدّ نظّارتيه على أنفه، ثم أضاف وهو يمرّر يده على لحيته بحركة سريعة:

-إنّه يريد الطلاق لأنّه يقيم علاقة مع امرأة أخرى في المدينة، ويرغب في الزواج منها، غير أنه لا يقدر على الإنفاق على زوجتين. ولذلك سيترك لك المنزل والأطفال والأثاث والحقل الصغير الذي يمكنك أن تزرعيه لحسابك، لكنّه لن يعطيك ولو ريالا واحدا في المستقبل.

ورفع حسن عينيه نحو ثريّا مُنتظرًا إجابتها.

ثم واصل:

-أعتقد أنّ هذا العرض شريف جدّا. سأحرّر عقد انفصالكما ويصبح

Twitter: @ketab_n

كلّ منكما غير مدين للآخر بشيء. ألا ترين أنّ هذا غاية في السخاء؟

ولم تجب المرأة المحجّبة بشيء:

-ثريّا خانم، نحن لوحدنا، وأنا رجل تقيّ يقتدي بالنّبيّ. بإمكانك أن تحدّثيني، فما الذي تريدين قوله؟

و تابع حسن كلامه مرتبكا قليلا:

-وأريد أيضا أن أعرض عليك أمْرًا آخر... إنّه يخصّني. ولا يهمّ غربان علي في شيء... هو ذا، كيف أصف لك...

وبينما كان شعور الرجل بالحرج يتنامى وعرقه ينضح، فرقع أصابعه التي كانت تمسك بالمسبحة.

-الأمر كما يلي... في الحقيقة، سأكون سعيدا إذا ما أنفقت عليك وعلى أطفالك اللّطفاء... إنّك تستحقّين ذلك حقيقة... وسيكون ذلك حسب الأصول طبعا! وسأجيء لزيارتك من حين لآخر، فنتحدّث، ونتآلف أكثر...

وكان اضطراب «الملاّ» يتنامى وهو جالس على مقعده. وكانت ثريّا واقفة أمامه واجمة.

وفي هذه اللّحظة بعينها ظهرت زهرة. فقد كانت في الحجرة المجاورة ولم يلحظها حسن. وتقدّمت نحو الشّيخ الذي انتصب واقفا في وثبة واحدة.

-يا سيد حسن لاجيفردي، أو لتكن من تكون، اخرج من هذا المنزل قبل أن أنادي على المدينة بأسرها.. واخجل من نفسك، لعنة الله عليك! يا بذرة الشيطان، ليأخذك حمّال الموتى، أنت وأهلك إلى الجيل الثالث... أيها الوحش.

وبعد أن كان حسن مضطربا بعض الشيء تمالك نفسه:

-ولكنّك لم تفهميني يا زهرة خانم... لا تخطئي فأنا أحترم ثريّا خانم بالغ الاحترام.. ماذا تظنّين؟

Twitter: @ketab_n

-أظنّ أنك شخص حقير وعليك أن تخجل من شكلك وعمامتك. إنّك تدنّس المصحف الذي تحمله.. اُخرج من هنا في الحال ولا تعد أبدا!

ومنذ ذلك اليوم قرّر حسن الانتقام من ابنة مرتضى رمضاني. ولكنّه كان يعلم أنّ ذلك لن يكون سهلا مادامت زهرة في صفّ الفتاة.

Twitter: @ketab_n

- 2 -

حدث ذلك بعيد الثورة، ففيما كانت أصداء التغييرات العميقة التي أحدثتها الثورة تصل متأخّرة إلى «كوباييه»، بدأ غربان علي يهجر زوجته، وأصبح صديقا لسائق الحافلة التي تأتي مرّة في الأسبوع. وكان نصر الله هذا يحكي له عمّا يحدث في الوادي، ويحدّثه عن المدينة الكبيرة، وعن مغازاتها، ومقاهيها، وأصحابه، والنساء اللواتي تسهل ملاقاتهنّ، والأموال التي يمكن الحصول عليها.

وانبهر غربان علي بذلك. وفي أحد الأيام، قرّر أن يتبع نصر الله. وكان في البداية يذهب إلى المدينة مرّة في الشّهر ويعود في الحافلة الموالية. ثمّ صار يفعل ذلك كل خمسة عشر يوما، مغتنما فرصة ذهاب العربة المجرورة وإيابها، العربة التي كانت تحمل بعض المسافرين أو الدّواجن، وأحيانا تحمل خروفا وباكورات، وطرودا. وفي كرمان، كان غربان علي ينام إمّا عند نصر الله أو في محطّة الحافلات، أو في أحد المقاهي حيث يعرض خدماته ويقدّم الشاي والمشروبات.

ووجد في شوارع المدينة وفي مقاهيها عالما أخّاذا. كان يخدم بعض النّاس حاملا لهم رسائلهم وظروفهم وطرودهم، وينحني مبتسما أمام أولئك الذين يتوسّم فيهم الوجاهة. ولكنّ هيأته القرويّة لم تكن تؤهّله أبدا للاختلاط بالرجال الذين يسعى لأن يصبح مثلهم.

وشيئا فشيئا، تحوّل بفضل طاعته وتلقائيته إلى شخص محبّب. لقد تغيّر، فصار يستخدم في كلامه ألفاظا غير شائعة في الجبال ولا يعرفها إلاّ أهل المدينة، ويتحدّث عن الصكوك البنكيّة، والقروض، والاستثمار. وباختصار، كان يروّج في كلّ مكان أنّه يدير أعمالا. ولكن في الحقيقة لم

Twitter: @ketab_n

يكن أحد يعرف بالضبط طبيعة عمله.

كانت ثريّا تلازم الصّمت. وقد استدعت الشرطة والحرس غربان علي عديد المرّات، لأنّ الظروف والعلب التي يحملها كانت تحتوي على «أشياء ممنوعة». ولم يقل مشهدي إبراهيم «الكدخدا» أكثر من ذلك، ولكن القرية فهمت بسرعة أن زوج ثريّا قد صار تاجر ممنوعات وأنّ من بين النشاطات التي يمارسها التستّر على السّرقات والتهريب.

ولم تكن ثريّا تسأله، بل ولم تكن تنتظر منه أن يحدّثها عن أنشطته.

وفي إحدى المرّات، قدم الحرس مجدّدا إلى القرية على متن سيّارة من نوع «جيب». كانوا ثلاثة: عريفًا وجنديّيْن. وتحدّثوا طويلا مع العمدة، ثم استجوبوا غربان علي وأباه قبل أن يعودوا من حيث أتوا. ولم يعرف أحد أبدا ما دار بينهم من حديث، ولكنّ ثريّا، من جهتها، فهمت أنّ الأمر يتعلّق بالناس الذين كان يخالطهم غربان علي في المدينة.

بعد هذه الفضيحة، أصبح غربان علي أكثر قسوة وعنفا مع أهله. فكان يضرب زوجته أو الطفل الذي تحمله بين ذراعيها لأبسط الأسباب. ومنعه الحرس مجدّدا من مغادرة «كوباييه»: «لو حدث أن وجدناك في المدينة، فسوف نزجّ بك في السّجن.»

وعاد يتسكّع في شوارع القرية من جديد، مقضّيا وقته مع هذا أو ذاك، هائما على وجهه في الهضاب مع رفاقه القدامى الذين هجرهم قبل أشهر، متحيّنا فرصة للعودة إلى المدينة. فلقد أعجبته ووجد فيها راحته، في حين أنه يشعر بالاختناق في القرية بسبب ضآلتها وقلة الأحداث التي تجري فيها.

لقد تعلّم في كرمان أشياء كثيرة في مدّة وجيزة. وكان يجد متعة في التردّد على المقاهي، والجلوس على الأرصفة لعدّة ساعات يشاهد السيّارات والناس. وكان مئات من الناس الذين يجهلهم، بل آلاف يمرّون بقربه فيدفعونه، وهم ذاهبون إلى أعمالهم. بينما كان هو ينتظر أن يطلب منه أحدهم القيام بعمل مشبوه، إذ أنه دائما تحت الطلب والناس

Twitter: @ketab_n

يعرفون أين يجدونه.

وبقدر ما كان يحدّث أصدقاءه في القرية عن ذكرياته في المدينة، فإنه كان يتحرّق شوقا للعودة إليها. بل إنه روى في أحد الأيام أن هناك من أعطى نقودا لمومس لكي يتمكّن هو من مضاجعتها وذلك مقابل خدمة قدّمها. وشرح كيف أخذ إلى منزل يقع في آخر شارع صغير هادئ ويحتوي على العديد من المومسات الشابات اللّواتي ينتظرن الرجال. واختيرت له واحدة فجامعها بعنف، دون أن يقول شيئا لهذه المرأة التي لم يعرف اسمها أبدا. وأقسم لنفسه أن يعود مجدّدا إلى هناك.

عقب الثورة، قُتل أناس كثيرون في كرمان وفي جميع الأقاليم. وكثرت تصفية الحسابات والعداوات المحليّة وأحكام الإعدام المرتجلة، والخيانات وعمليات الفرار والاغتيالات.

ولم يقرّر غربان علي الذهاب إلى كرمان مجدّدا إلاّ في الخريف، بعد ثمانية أشهر من تولّي الإمام مقاليد الحكم في طهران. ونزل من الحافلة في مدخل المدينة عوضا عن الساحة الفسيحة أمام مسجد «الجمعة»، إذ أنّه فضّل أن يتوارى عن الأنظار.

-يا غربان علي! ... يا غربان علي!

التفت نحو الجهة الأخرى من الرصيف، وقد تولاّه الذّعر، فتعرّف على أحد رفاق مجونه القدامى، وكان قد نسي اسمه.

-تعال، تعال إلى هنا!

وتردّد غربان علي قليلا، ثم عبر الشارع. وتصافح الرجلان، ثم قال الشخص المقيم في المدينة بعد أن تحادثا في أمور تافهة:

-انظر، إنّ هذا الدكان ملك لي وحدي... في الماضي كنت أشتغل فيه لصالح وَغْدٍ من أنصار الشاه كان يملك دكاكين كثيرة في المدينة. غير أنّي ساهمتُ في الثورة، فكافأني الإمام، والآن أنا سيّد نفسي وأتاجر في الفواكه والخضروات والمشروبات والحلويّات.

Twitter: @ketab_n

اندهش غربان علي.

-هيا، تعال، اتبعني سأدعوك لتناول فنجان شاي وسنتحدّث عن الأعمال. فأنا واثق أنّ شخصا مثلك يستطيع أن يربح الكثير من المال.

وقضى غربان علي ثلاثة أيام وثلاث ليال عند منصور، حيث ساعده في التزوّد بالسلع و البيع والمناداة وفي تصفيف البضائع عند حلول المساء.

-قل لي، ألا ترغب في العمل لصالح الإمام؟

- إنّ ذلك ليسرّني، ولكنّي لا أعرف أحدا في هذه المنطقة...

- لا تهتمّ لذلك، فأنا أعرف الجميع. وسأساعدك أنا وأصدقائي.»

وقدّم غربان علي إلى أحد جيرانه الذّي عرّفه على مساعد في مخفر الشرطة الموجود في الحيّ، وهكذا وجد نفسه بين عشيّة وضحاها سجّانا في السجن المحلّي بمرتّب منتظم، فخيّل إليه أنّه في حلم.

وكانت مفاجأته كبيرة عندما علم أن «الأرباب»، الذي اعتقل قبل أسابيع قليلة، قد زجّ به في «سجنه».

كان يصعب التعرّف على الرجل وهو يقبع في أعماق زنزانته، وكان مستعدّا للتّضحية بأيّ شيء في سبيل حرّيته. فكلّما طلب غربان علي المزيد من المال، كان الرجل البدين البائس مستعدّا لأن يدفع.

غير أنه كان يوجد مشكل بلا حلّ، وهو كيف يمكن الاستيلاء على كلّ شيء. فالمالك كان يقبع في السجن، في حين أنّ أملاكه توجد في الخارج.

وفاتح منصور في الأمر، فبدا الحذر على الرجل.

-علينا أن ننتظر، فكلّما تعجّلنا أكثر، لفتنا الأنظار إلينا. فاصبر...

غير أنّ الصبر لم يكن من شيم زوج ثريّا الذي كان يريد دائما الحصول على كلّ شيء في الحال.

-إنّ "أربابك" ليس شخصا مهمّا، ولم يفعل شيئا ذا شأن. ويوجد هنا آخرون سيحاكمون قبله، وهم أولئك الذين اختلسوا الملايين وجوّعوا الشعب واحتالوا على نصف سكان المدينة. ولدينا هنا العشرات من

Twitter: @ketab_n

أمثالهم كذلك في سجنيْن آخريْن للشعب. وقد تكون لصاحبك هذا أهمية في نظرك ونظر أهلك، ولكن ليس في المدينة. فَلْنَدَعْهُ يَسْتَوِ على مهل. وسيكون أكثر ليونة بعد أشهر.

لقد كان منصور على حقّ، فقد توالت القضايا والأحكام بالإعدام، ولم يظهر اسم «الأرباب» بعد على أيّة قائمة. وبمرور الأسابيع، نحل الرجل وبدأت شوكته تتكسر. وكان يعلم أن غربان علي هو حاميه وضامنه، ولكنّه كان يعلم أيضا أنه يمكن إخراجه من سجنه الانفرادي ليمثل أمام القضاة في أيّة لحظة.

وبعد أشهر، ظهر اسمه لأوّل مرّة على قائمة لأشخاص مشبوهين ينتظر أن يحاكموا. وتوصّل منصور وصديقه لإخفاء الورقة التي تحتوي على اسمه لبعض الوقت. وفي إحدى المرات، شطبوا اسمه ببساطة. غير أنه كان عليهما أن يسرعا لا سيما وأنّ شخصا غريبا بدأ يتردّد منذ أسابيع على المحكمة والسجن و اللجان.

كان يزعم أنه قدم من طهران لتنفيذ مهمّة، وأنّه قد عرف الإمام. وكان الكلّ يسمّيه «السيّد لاجيفردي»، أمّا هو فيتبجّح بأنّه قريب لأحد الموظفين الكبار في النظام الحاكم. باختصار، كان شخصا يبعث على الريبة والجميع يحذرون منه. وقد احتاج غربان علي إلى ألف حيلة وإلى عدد مماثل من الانحناءات والمداهنات لكي يحوز في نهاية الأمر على تواطؤ الرجل وليس على صداقته. وكان لاجيفردي على علاقة مع مفوّض شرطة الحيّ، الذي كان له بدوره حضور في محكمة الاستئناف. وكان جميع هؤلاء يملكون المفاتيح وقائمات الأسماء والأختام التي تخوّل لهم إصدار أحكام مزوّرة. وكان سهلا جدّا إضفاء صبغة قانونية على العطايا التي يقدّمها «الأرباب» لسجّانيه وخصوصا لغربان علي.

في يوم المحاكمة، مثل المالك أمام القضاة هانئ البال. وقد تعرّف على أولياء نعمته في القاعة. ولكنّه عندما سمع الحكم: «باسم الله،

Twitter: @ketab_n

نحكم عليك بالشنق قبل غروب الشمس...»، أغمي عليه.

اقتسم الشركاء ثروة «الأرباب» المتوفّى وتحصّل غربان علي على أصغر حصّة: المنزل الذي كان الرجل يسكنه، ومنزل والديه، وحق الاستغلال المجّانيّ لماء النهر، ومبلغ قدره عشرة آلاف ريال نَقْدًا والسيّارة. ومنذ ذلك الحين، صار يحسّ أنّه شخص مهمّ. كان الناس يلقون عليه التحيّة، ويدعونه لاحتساء كأس من الشاي أو تناول عنقود من العنب كلّما مرّ في شوارع كرمان، كما كانوا يسعون لمرافقته. وفي المقابل، كان فريق آخر من الناس يتحاشونه. وما كان عمله في السجن بمرتّب محترم مع النوم والأكل ليسبّب له إزعاجا، لو لم يكن ذلك ينفّر بعض الناس منه. وكان قادرا على مساعدة بعض الأشخاص ولكنه قادر أيضا على سجن من يريد، حسب مزاجه.

كان يواصل تجارته غير المشروعة ممكّنا رؤساءه، بل وأحيانا بعض المحتالين، من الربح. كما تعلّم قيادة السيّارة، وكان يُستقْبَلُ في الماخور بهيبة، وباختصار، صار شخصا معروفا في حيّ مسجد «الجمعة».

وكان من الطبيعي أن يتّخذ هيئة السيّد عند ذهابه إلى «كوباييه» ليتبجّح بمآثره، ويتحدّث عن أعماله. وفي ذلك الوقت، صار كلّ ساكن مالكا لمنزله، وتحوّلت الأراضي المحيطة إلى الملكية العامّة وأصبح الماء مجّانيّا.

وكان غربان علي يدّعي في القرية أنّه مدير السجن. وكان في حقيقة الأمر يملك مفاتيح كل الزنزانات والمكاتب. حتى أنّه -نظرا إلى معرفته الجيّدة بالأختام والوثائق الرسمية- كان قادرا على إطلاق سراح المساجين، خفية، مقابل مبلغ ماليّ يقبضه على الفور.

كان لجميع أهل المدينة قريب يقبع خلف القضبان، فكانوا لابدّ وأن يحتاجوا في يوم من الأيّام لخدمات غربان علي الذي فتح رصيدا بنكيّا سرعان ما تضخّم.واستأجر خزنة كبيرة كدّس فيها حاملات المفاتيح

Twitter: @ketab_n

التي يسلّمها له المساجين، ومستندات بنكيّة وعقود ملكيّة وتأمينات وأشياء ثمينة ومجوهرات و غيرها.

ثم وقع غربان علي في الحب.

لقد أحبّ للمرّة الأولى في حياته. ولم تكن أيّة امرأة. فهي ليست قرويّة ولا تاجرة ولا حتّى أصغر فتيات المبغى سِنًّا، تلك التي كان يفضّلها على الأخريات.

كانت الفتاة التي وقع في حبّها قد لفتت انتباهه عندما أتت إلى السجن لزيارة والدها. كانت جميلة بال «تشادور» الذي ترتديه ووجهها الشاحب وعينيها الخضراوين وشفتيها الرقيقتين. وقد أعجب بها على الفور. ولكن كيف يمكن له أن يحادثها؟ وكم عمرها يا ترى؟ أربعة عشر عاما؟ أم خمسة عشر؟ أم أكثر؟ أمام الباب الرئيسي للمبنى، كانت تقف مرّتين في الأسبوع في الطابور طوال ساعات تحت الشمس مع نساء أخريات من زوجات المساجين وبناتهم.

وسرعان ما تحرّى عنها، فعرف أنّ أباها كان طبيبا اجتذب إليه في ما مضى عددا كبيرا من الزبائن من بين أثرياء المدينة، وأنّه ما كان يُخفي ميولاته المَلَكيَّة. ونظرا إلى مكانته المرموقة ولأنّه كان من علية القوم، فقد تركته سلطات الثورة وشأنه لبعض الوقت، لأنّهم كانوا في حاجة لكفاءته.

ولكن في أحد الأيام، أتى أمر من العاصمة باعتقاله. وعلى هذا النحو تعرّف غربان علي على «مهري».

كانت تستحوذ على تفكيره، سواء كان ذلك في اللّيل قبل خلوده للنوم، أو عندما يكون في طريقه لزيارة فتيات مبغى شارع «دار فازه زاهدان». وكثيرا ما تخيّلها بين ذراعيه يداعبها ويكلّمها، مستنشقا عطرها. وكان يقول لنفسه إنه لو تزوج امرأة مثلها فمن المؤكد أنّه سيكلّف بمهام أكبر في السجن، بل وربّما أخذ مكان المدير.

Twitter: @ketab_n

ومنذ ذلك الحين، صار لا يفهم كيف قضى كلّ تلك السنوات في «كوباييه». بل وكان يخجل من أن يقول لزملائه في العمل إنّ أباه كان راعي غنم، مفضّلا القول إنه كان صاحب دكّان ويملك قطيعا من الغنم. وكان ذلك صحيحا، فبعد وفاة «الأرباب» تقاسم الجميع أملاكه، وورث أبوه «لطف الله» دكّانا صغيرا وبعض الأغنام.

وفي نهاية الأمر، لم يعد غربان علي يحتمل ثريّا، فكان لا يريد أن يعيش مع هذه المرأة الصموت والخانعة التي هرمت قبل الأوان ولم يجد فيها ما يستحقّ اللّوم.

لقد حاول أن يهينها بالتبجّح أمام أصدقاء طفولته بمآثره في المدينة، وأن يثير غيرتها بقوله إنه يقود السيّارات، وأن يستفزها بوصفه لفتيات المدينة الجميلات اللّواتي يرتدين ملابس جميلة ويتعطّرن بالورد. ولكنّ ثريّا كانت تلازم الصمت وكأنّها لم تسمع شيئا. وفي إحدى الليالي أردف قائلا:

-لا يستبعد أن أتزوّج ثانية وأن أُرزَقَ أبناء آخرين... أريدهم أن يدرسوا في أفضل المؤسسات التعليميّة... وأنا أعرف إحداها في كرمان...

ولم تبدر أية ردّة فعل عن المرأة المنهمكة في ترقيع الجوارب على ضوء شمعة.

و لكن حسين علي، الابن الأكبر، سأل:

-وكيف هي هذه المرأة يا أبي؟ حدّثنا عنها؟

ونظر غربان علي إلى زوجته التي كانت لا تزال منحنية على عملها، ثمّ تابع مدخّنا نارجيلته:

-إنّها في مقتبل العمر وجميلة جدّا ومثقّفة ووالدها طبيب، وكلانا معجب بالآخر.

- هل سبق أن تحادثتما؟

- عديد المرّات... أي كلّما أتت إلى السجن. لقد كنت أجنّبها عناء

Twitter: @ketab_n

الانتظار، فالطابور طويل جدا... وهي تعترف لي بهذا الجميل...

كان يكذب، ذلك أنّه لم يسبق له أن كلّمها، لكنّه كان مستعدّا لفعل أيّ شيء لاستفزاز ثريّا. وكان يحاول بكلّ الطرق أن يدفعها لارتكاب زلّة.

كان يذهب إلى القرية على متن سيّارة وبجانبه امرأة من المدينة اختارها من المبغى وألبسها نظّارات ثمينة. وفي محاولة للفت الأنظار إليه، كان يدور حول الساحة ثلاث مرات، ثم يتوقّف أمام النافورة، ويلقي التحيّة على بعض معارفه ثم يعاود الانطلاق مخلّفا سحابة عظيمة من الغبار. ولم يصدر عن أحد تعليق أبدا، فقد كان السكّان يخشون أن تكون لغربان علي علاقات سياسية في الوادي من شأنها أن تعود يوما بالمضرّة على أهل القرية. وما انفكّ الناس يعتبرونه شخصا تافها ويفعلون كلّ ما في وسعهم كي يتحاشوه.

وكان الشيخ حسن، الذي أتى إلى القرية منذ مدّة وجيزة، هو الوحيد الذي يخشى هذا «الخفير» الغامض النوايا والذي يمكن أن يسبّب له المتاعب في أية لحظة. لقد اختفى عديد الأشخاص في تلك الأجواء المتقلّبة، وكان على «الملاّ» أن يفرّ بسرعة من كرمان في ظروف غامضة، بعد أن ضرب موعدا مع قاض إسلاميّ اختفى بعده هذا الأخير إلى الأبد. فكان من الأفضل إذن بالنسبة إليه أن تكون علاقته جيدة مع غربان علي.

وذات شتاء، ماتت «فيروزة»، وهي صديقة طفولة لثريّا، بسبب التهاب في الرئة. وتركت طفلين وزوجا اسمه هاشم، وهو شاب جدّيّ يعمل بتفان في الحدادة، وابن عمّ لغربان علي. وكان هاشم، مثل أبيه، يتولى إصلاح كل شيء في «كوباييه»: المحاريث والدرّاجات والمعاول وأدوات المطابخ وعجلات الآبار والسماور...

ومنذ أن ماتت صديقتها، ولمّا لاحظت قلق الأرمل، قرّرت ثريّا مساعدته. لقد كانت «فيروزة» تعتني بمنزلها جيّدا، فكان كلّ شيء نظيفًا ومرتَّبًا بعناية. غير أنّ الأب لم يكن قادرا على الطبخ وشراء ما يلزمه

Twitter: @ketab_n

والاعتناء بأطفاله، فهو ما يزال شابا، كما أنّه فقد أمّه في سن مبكّرة ولم تكن له أخوات.

وكانت ثريّا مستعدّة لفعل ذلك. فتمّ الاتفاق على أن تذهب لهاشم مَرّتَيْن في اليوم كي تساعده في شؤون المنزل.

وكانت تلك هي الفرصة التي طالما انتظرها غربان علي للتخلّص منها. فكان كلماّ زار القرية تعقّب خطاها بأناة وهو يراقبها ويطاردها كي تقع في الفخّ الذي نصبه لها.

ودون أن تتفطّن الفتاة إلى أنّ أيّامها صارت معدودة، واصلت تردّدها على منزل أرمل «فيروزة» للاعتناء بأطفاله، دون أن تُهمل مع ذلك منزلها وعائلتها.

وشيئا فشيئا، انتشرت في القرية شائعات مؤسفة في حقّ ثريّا.

Twitter: @ketab_n

- 3 -

فيما كان الشّيخ حسن يتوجّه بخطى بطيئة نحو منزل«الكدخدا» تذكّر السنوات المُنقضية التي غيّرت مجرى حياته. لقد حدث كل شيء بسرعة، وبشكل غير متوقّع أبدا... تسبّب رحيل الشاه في تدهور الأوضاع. وفجأة أصبحت السلطة بيد الناس، وفي ليلة واحدة أخليت السجون. كانت الحشود تسير في شوارع العاصمة عطشى للثأر وللحرية. وسادت الفوضى والجنون، وتوجّه أوباش من الحي الجنوبيّ نحو الشمال حيث توجد الفيلات الجميلة والنزل الفخمة وأرقى المطاعم.

سمع حسن لاجيفردي هتاف الجماهير وصخب المواجهات من سجن «باجي شاه» العسكريّ حيث كان معتقلا. وفجأة حوصر السجن واقتحم، فشاهد لاجيفردي من خلال نافذة زنزانته جثّتيْ جُنديَيْن مُمدّدتَيْن على الثلج في الحديقة منذ ساعات مثل بقعة قاتمة على الخلفية البيضاء.

وسمعت أصوات مفاتيح وصرير مفصلات ووقع جزمات، ودخل ثلاثة أشخاص مسلّحين برشّاشات إلى الزنزانة.

و زعق صوت أجشّ:

-كم يبلغ عددكم في هذا المكان؟

فأجاب أحد المساجين:

- خمسة.

حينئذ صاح نفس الصوت:

- اصطفّوا في مواجهتي، بسرعة...!

تقدّم الرجل خطوات ثلاثا وتفحّص المساجين.

-من يحسن القراءة والكتابة؟

Twitter: @ketab_n

ورفع ثلاثة فقط أياديهم.

-من منكم تحصّل على شهادة ختم الدّروس؟ وهل ثمّة جاممّي بينكم؟

وأجاب حسن لاجيفردي بالإيجاب.

-ماذا هناك، أنت، أيها العجوز، هل أنت أستاذ...؟

-كلاّ.

فأجاب الرجل وهو يرفع سلاحه بضعة سنتمترات.

-عليك أن تقول «كلاّ يا سيدي».

-كلاّ يا سيدي، أنا متحصّل على شهادة ختم الدروس. وقد قمت بالتدريس لبعض الوقت.

-هل تتحدث لغة أجنبية؟

-التركية والعربية قليلا، وأعرف بعض العبارات بالإنجليزية.

-كم عمرك؟

- ثلاثة وخمسون عاما يا سيدي.

تقدّم الرجل المسلّح خطوة وتوقّف على بعد سنتمترات من حسن.

-ماذا تفعل هنا إذن؟ هل أنت «سافاكي»[1]؟

-كلاّ يا سيدي، لقد اقتدت إلى هنا عن طريق الخطأ، أقسم لك... وانفجر الرجل ضاحكا.

-كلكم تقولون هذا، يا لكم من فاشيين رعاديد. سأنظر في ملفّك بعد قليل. والويل لك إذا اتّضح أنّك كاذب!

ضرب الرجل حسَنًا بهراوة على جنبه لكي يجبره على التوغّل في الممرّ. وبعد زمن وجيز، وجد حسن نفسه بين مساجين آخرين في قاعة واسعة مضاءة بالنيون.

و زعق صوت:

«اجلسوا بصمت!»

---

(1) سافاكي: من «السافاك» وهو جهاز مخابرات في عهد شاه إيران.

Twitter: @ketab_n

وأُسْنِدت أرقامٌ إلى عشرات الأسماء طوال الصباح، كما استُجْوِبَ عدد من الأشخاص، بل وضربوا عندما لم تكن أجوبتهم تبعث على الرضى، وبعد ذلك أرجعوا إلى زنزاناتهم. ثم جاء دور حسن. كان منهكا، فهو لم يذق شيئا منذ البارحة.

-لاجيفردي!..حسن لاجيفردي!

-أنا، يا سيدي. هكذا أجاب مُنتصبًا وهو يتوجّه نحو المصطبة التي كان يقف عليها ثلاثة رجال مُسلّحين، يرتدون بزّات عسكرية ويضعون كوفيات فلسطينيّة حول أعناقهم.

- الملفّ عدد 58/7865. تحيّل وتزوير واستخدام وثائق مزوّرة وابتزاز أموال وادعاء إفلاس وإصدار صكوك دون رصيد وتمرّد على أعوان أمن وإحداث شغب في الطريق العام...

وتبادل القضاة الثلاثة النظرات.

-ليس هذا بالهيّن بالنسبة إلى رجل واحد. هل فعلت كل هذا وحدك؟

- أقسم لكم أيها السادة أني لم أفعل كل هذه الأشياء وقد قلت ذلك للقاضي الآخر، ولكنّه لم يصدّقني.

- منذ متى وأنت هنا؟

-هنا، في «باجي شاه»، منذ عشرة أيام، ولكن قبل ذلك كنت في سجن «غسر» قبل سبعة أشهر.

- إذن فقد اتّهمك أحد قضاة الشاه المخلوع؟

- أجل، سيدي.

- لأنّ ذلك مدوّن في ملفّي. وقد وقّعت عليه وكتبت التاريخ.

وتمتم القضاة الثلاثة شيئا، ثم قال أوسطهم:

- هل ترغب في العمل لصالحنا؟

سأل حسن مندهشا:

- وكيف ذلك؟

Twitter: @ketab_n

– هل ترغب في العمل لصالح الجمهورية الجديدة التي نحن بصدد وضع أسسها ومساعدتنا في إخراج الملكيين من مخابئهم؟

–بالتأكيد... بالتأكيد... حتى أنه يوجد منهم اثنان في زنزانتي... بل وربما كانوا ثلاثة!

وهكذا شرع حسن لاجيفردي في مهنته الجديدة التي سيكون ترقّيه فيها مذهلا: كاتب، فمترجم، فجاسوس، فمخبر لفائدة شرطة الدولة الجديدة، فمساعد جلاّد فناطق بلسان المدّعي العام للثورة، وأخيرا ممثل «للإمام» في قرية تقع في شمال البلاد. وكل ذلك خلال سنتين.

وتوصّل حسن إلى إخفاء ملفّات من شأنها أن تدينه وإلى تزوير وثائق تثبت حسن سيرته. ورغم أنّه اتّهم في الماضي عديد المرّات بالاختلاس وبجنح صغيرة، فقد توصّل إلى محو كلّ أثر لماضيه، محافظا في الآن نفسه على هويته القديمة. لقد تغيّرت هيأته كليّا، فصار يرتدي عمامة وجبّة طويلة ويضع معطفا خفيفا على كتفيه وينتعل خفّين ويحمل مصحفا ومسبحة في يديه، وكانت لحيته المحلوقة بعناية ونظاراته الملوّنة التي يضعها على أنفه تعطيه هيأة أستاذ ومفكّر.

وبما أنّ حسَنًا ظلّ أعزب حتّى ذلك الحين، فقد قرّر الزواج لاسيما وأنّ وضعه الاجتماعيّ الجديد يسمح له بالتطلّع إلى الأفضل. واختار أرملة شابّة وثريّة تملك منزلا واسعا يشرف على البحر ومزارع أرز وشاي واسعة. واشترى لنفسه سيّارة واتّخذ سائقا، كما ابتاع زيّا دينيا أكثر أناقة ومصحفا مزخرفا وبعض المجوهرات. وكان يمكن لحياة الترف التي يعيشها أن تدوم زمنا طويلا لولا أن موظّفا شيعيّا كبيرا كان قد مرّ بالقرية لتحيّة زميل له. وكم كانت دهشة المسافر عظيمة عندما لاحظ أنّ حسَنا يعيش في بذخ وبحبوحة لا يتماشيان مع مبادئ الثورة الدينيّة. لقد كان الرجل الوحيد في منزل فسيح، وكان يعيش مع حماته وخادمتين وجارة تعتني بالحديقة، علاوة على زوجته وابنتيها.

Twitter: @ketab_n

وعندما دخل الموظّف، كان حسن مستلقيا على سرير معلّق. وكانت فتاتان تروّحان عليه بسعفتي نخيل طويلتين. وسرعان ما احتدّ النقاش بين الرجلين. وبعد شهر، جرّد ممثّل الإمام من جميع أملاكه وصودرت كلّ ثروته. ولما كان من الناحية القانونية لا يملك شيئا، فقد ترك القرية ذات صباح متذرّعا بالذهاب للمدينة المجاورة. وفي الواقع، كان قد سرق زوجته بعد أن هجرها. وكدّس بسرعة الخواتم و القلائد والأساور والمناجد و الأقراط والنقود في جراب، وتمكّن من اللحاق بحافلة «شالو» في آخر لحظة، دون أن يبدو عليه أيّ اضطراب.

كان لاجيفردي شاذا جنسيّا. ولما اكتشفت الشرطة اهتمامه المبالغ فيه بتلاميذه الصغار أولادا وبنات، أطرد من عدد من المؤسسات التعليمية، ثم من سلك التعليم. لقد كان يعيش بالاحتيال وينام حيثما استطاع، ولذلك سجن بضعة أشهر قبل الثورة.

وبعد سنتين قضاهما في «الكسبيّة»، فرّ إلى الجنوب متحاشيا مدينة «قم» المقدّسة.

ومرّ بـ «يزد» فقضّى فيها سنتين، وهي مدينة زرادشتية قديمة اعتنقت الإسلام وشيدت على تخوم الصحراء، وبما أنّها تمثل ملتقى طرق تجارية، فقد كانت تناسبه كثيرا، هو الذي كان يسعى لأن ينساه الجميع.

وعمل بعض الوقت خادما في جامعي «الزمن» و«الساعة» ثم مرشدا في ضريح شمس الدين. ثم تزوّج أرملة أخرى كان زوجها قد أعدم لأنّه كان يتعاون مع النظام السابق.

وفي هذه المدينة المعروفة بالتقوى و الحركة الدائبة فضّل أن يتصرّف كمواطن صالح، واشترت له زوجته الجديدة ملابس وأحذية. وكان كل شيء سيظلّ على حاله لولا أن أحد رفاقه في سجن «غسّر» قد عرفه، وكان قد تقاسم معه زنزانته طوال أشهر عديدة.

Twitter: @ketab_n

لا شيء يخفى في قرية من الأقاليم، وقبل نهاية النهار عرف كل من في الحيّ أن الرجلين قد تعارفا داخل السجن، واعتقلا بسبب الاحتيال وأنّ الثورة هي التي أخرجتهما من السجن.

وتابع حسن طريقه نحو الجنوب بغير هدف محدّد بعد أن طلّق زوجته ثانية وصار غنيّا، بسرقة بعض الأشياء من خزنتها.

وعلى ذلك النحو، حطّ رحاله ذات مساء في كرمان، حاملا في يده حقيبة تحتوي على بدلاته وأحذيته ومصحف وبعض المجوهرات. ومرّة أخرى عمل مرشدا لبعض الوقت في قصر «القبّة الخضراء» وفي جامع «الباهمنار» ثم وجد عملا مربحا أكثر كمدرس بمدرسة «سعادة» التي تقع شرقيّ المدينة. وهناك درّس القرآن والسيرة النّبويّة. وفي ذلك الوقت بدا أن الله قد هداه. ولما كان يحسن العربيّة قليلا، فقد حفظ كلّ آيات القرآن، وجعل يطالع بنهم المنشورات الإسلاميّة الجديدة ويستمع إلى المواعظ التي تبثّها الإذاعة القوميّة.

أدرك أنه في متناول أي شخص أن يصبح «مُلاّ» دون أن يكون قد تابع دراسته شرط أن يصطنع التقوى والبرّ والزهد. وصار صديقا لبعض المتدينين، وقرأ الكتب التي كتبها الإمام في المنفى، كما حفظ أقوال الصالحين المأثورة التي كان يجهلها حتى ذلك الحين. وظلّ علمانيّا، لكنّه كان يحسّ بقوّة خفيّة تدفعه لأن يصبح داعية للرسول.

في ذلك الوقت، كان حسن يسكن عند أناس أجّروا له غرفة. وكان يتناول الطعام مع العائلة. حتّى أنه كان يعطي دروسا خصوصية في التاريخ و الجغرافيا لابن مضيفيه الأصغر. وكان شعره الرمادي ولحيته الأنيقة وقامته المديدة ونظاراته يضفون عليه الهيأة الجديّة التي يصبو إليها. ولكن خلف البلورات الملونة، كان حسن يتلصّص ويدقّق النظر مثل حيوان كاسر.

وعلى مسافة بعيدة جدّا من العاصمة ومحاكمها الثوريّة، كان يعيش قانعا ويحاول الظهور بمظهر حسن أمام أهل القرية وإمام جامع

Twitter: @ketab_n

«الجمعة» الذي كان يتردد عليه بانتظام.

كان الجامع قد صار مركزا لكل الأعمال والصفقات المشبوهة في المدينة. فكانت أبسط المساعي لدى الحكومة، مثل إبطال الرهن على أرض من الأراضي أو عمليات الطلاق المستعجلة، تتمّ حول الحوض المركزي في أوقات معينة، بين صلاتين وثلاث مواعظ. فكان كل شيء قابلا لأن يباع أو يشترى أو يؤجّر.

مع كأس الشاي الرابعة تجد من ينصت إليك فيما ظرف يحتوي على بعض الأوراق المالية يمرّ بسرعة من يد ليد، لكي يختفي في النهاية في الأكمام الفضفاضة للفجر الإكليركي.

لقد كان حسن دائما بارعا في التزلّف والمراوغة، وسبق له أن تعاطى كلّ هذه الممارسات مع مديري المدارس التي كان يدرّس فيها، وأصحاب النفوذ في النظام القديم، ثم مع سجّانيه. فلا أحد يضاهيه في التملّق.

وشيئا فشيئا، بدأ الناس يطمئنون إليه، فسمحوا له باتخاذ المبادرات أو التكفّل ببعض الأعمال. لقد كان يعرف كيف يجعل الناس لا يستطيعون الاستغناء عنه، وكانت أجمل مكافأة بالنسبة إليه هي يوم دعاه إمام الجامع للعشاء. وكان أناس بسطاء يطلبون مساعدته والتدخّل لفائدتهم لدى الحكومة أو السلطات الدينيّة. وعلى هذا النحو، تقاضى ريالاته الأولى مقابل عمليات وساطة قام بها.

وازدادت قيمة المبالغ المالية بسرعة، وإنْ ظلّت أقل بكثير من تلك التي يحصل عليها أصحاب النفوذ الذين يتردّدون على الجامع أو مقرّ الوالي. ولكنّ حسَنا كان يعرف كيف يجد كفايته في تلك النقود. ولما كان حذرا جدّا مثل الكثير من عامّة الشعب الذين يتسلّقون سلّم المجتمع درجة درجة، فإنه لم يكن يثق بالبنوك، مفضّلا الاحتفاظ بنقوده معه، محوّلا إيّاها إلى قطع ذهبية كلّما أصبحت حزم الأوراق ثقيلة. وبناء على طلبه صنع له حزام بثمن مناسب مقسّم إلى جيوب عديدة يمكن إغلاقها بالضغط

Twitter: @ketab_n

عليها، وفيه كان يحشو غنائمه. ولم يكن يفارق أبدا حمله الجديد هذا، لا في الحمّام و لا حتى في فراشه.

وعندما قدم رئيس البرلمان -وهو من مواليد كرمان و يمتد نفوذه على كامل البلاد- لزيارة أبناء بلدته، لم يضيّع حسن هذه الفرصة للبروز.

استمرّت الفرحة الشّعبيّة ثلاثة أيام، وعندما طلب رجل الدّولة، قبل رحيله بيوم، أن يقابل بعض الأعيان المحليين الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الثورة والإمام، وجد حسن نفسه في مقرّ الولاية، وسط ما يقرب المائة من الشخصيات المدنية والدينية التي لم يكن يعرفها والتي تمثّل النخبة في المدينة.

وعندما اقترب الرئيس من إمام «الجمعة» قدّم له هذا الأخير حسنا:

-إنه رجل تقيّ منصف وطيب وهو عنصر فاعل في المجتمع، ومربّ بارز.

ابتسم له الرئيس قائلا:

-هذا جيد، واصل، فأنت للشباب قدوة... إن أولادنا في حاجة إلى معلمين من أمثالك...

واضطرب حسن وهو يشكره، وانحنى باحترام، ثم تمتم:

-سعادتكم... إني أبذل كلّ ما في وسعي... وليباركني الله وإمامنا المحبوب...

وعندما انتصب من جديد، كان رئيس البرلمان قد ذهب. والتقطت عديد الصور، فاقتنى حسن في اليوم الموالي ما يقارب العشر صور. من يدري، فقد يحتاج إليها في يوم من الأيام. ولم يكن قد استشعر سعادة مماثلة طيلة حياته...

ومنذ ذلك الحين، صار حسن لا يغيب عن أي تظاهرة أو احتفال يقام في المدينة، واتّخذ منه المحافظ صديقا كما كلّفه بعديد المسؤوليات. ولكن كيف لا نغوي محتالا -حتى وإن كان قد أعلن توبته- عندما نضع تحت تصرّفه مستندات رسمية عليها شعار الدولة، وأختاما، وسيّارة وظيفية

Twitter: @ketab_n

وجزءا من مالية المدينة؟

واستطاع حسن أن يصمد أمام الغواية لبعض الوقت، ولكن الناس الذين يلتمسون عونه والذين كانوا على استعداد لمكافأته مقابل كل خدمة يؤدّيها تغلّبوا في النهاية على اندماجه الهش وحديث العهد. ومنذ ذلك الحين، بدأ يوزع الترقيات غير القانونية والامتيازات ببساطة تبعث على البلبلة، إلى أن أتى اليوم الذي ارتكب فيه هفوة. لقد أعطى الإذن ببناء منزل على أرض متروكة ظنّ أنها بلا مالك وأنّ أحدا لن يطالب بها. وتلقى مقابل ذلك مبلغا ضخما من المال.

وكان كل شيء سيتمّ على أكمل وجه لولا أن سكرتير المحافظة قد أعلمه بعد أيام أن الأرض التي كان يزعم أنها متروكة ملك لعائلة زوجته.

-لقد بعت شيئا لا تملكه.

-إن هذه الأرض المتروكة قد بيعت لي في الشهر الماضي، وأنا أعدت بيعها بعد مدة قصيرة لمالكها الحالي.

-كل الوثائق مزورة. وقد حررتها بنفسك.

ولم يدم التحقيق زمنا طويلا، وكانت الفضيحة كبيرة. وقد اعتقل على الفور وزجّ به في السجن. وظلّ هناك أسبوعين، إلى أن استدعاه المدّعي الإسلاميّ لتلك المنطقة في مكتبه.

-أن تسرق الدولة وتتحايل على الله وتخون الثورة، تلك إذن كانت طموحاتك الوحيدة منذ سنوات. لقد حاولت أن تمحو آثار ماضيك التعيس، ولكن أعواني استطاعوا معرفة الحقيقة كاملة. في حين تشقى الأمّة وتضحّي بدمها للدفاع عن الأرض ضدّ المحتلّ الخائن، تسعى أنت للإثراء على حساب إخوانك. إنّك لا تستحقّ حتّى الرصاصة التي ستقتلك.

ونكس حسن لاجيفردي رأسه بجبن.

-إنك لا تجيب؟ فهل تعترف بأخطائك؟

Twitter: @ketab_n

- أجل، أعترف بأخطائي. وليس لديّ ما أقوله...

خيّم صمت ثقيل. ورأى المدّعي يتصفّح الملفّ بانفعال ويقرأ بعض السطور، ثم يرفع رأسه لكي ينغمس مجدّدا في أوراقه.

-أمازلت لا تجد شيئا تقوله للدفاع عن نفسك؟

-كلا يا سيدي، ليس لدي ما أقوله سوى التوسّل إليك كي تعفو عن أخطائي.

كان الرجل يحدّق فيه. وبدت عمامته السوداء كأنها تستند إلى أذنيه الضخمتين اللّتين تتدليّان حول وجهه. لا بد وأنّ عمره لا يتجاوز الثلاثين عاما. وكان أملط بالكامل ويشبه أولئك الخصيان الذين يحرسون الحريم في المنمنمات القديمة.

-هل لديك أي عرض تريد أن تقدّمه لي أو مبايعة تريد أن تعرضها عليّ طمعا في رحمتي؟

كان حسن واثقا من أن الأمور ستنتهي على ذلك النحو. وكان ينتظر هذا السؤال الذي أعدّ له إجابة منذ خمسة عشر يوما.

-لا أملك الشيء الكثير، ولكن القليل الذي أملكه يمكن لي أن أضعه تحت تصرّف الثورة وتصرّفك.

-كم تبلغ قيمة المال الذي تستطيع أن تقدّمه.

-بعض القطع الذهبية التي تقاضيتها أثناء عملي كمدرس منذ وصولي إلى هذه المدينة. إنها ليست كثيرة ولكني أتنازل عنها بفخر في سبيل الوطن.

كان المدعي ينقر بقلم على الملف. ثم ظهرت تكشيرة صغيرة على شفتيه. لقد ظلّ صامتا لبعض الوقت، محدّقا في المتهم.

-وأين يوجد هذا المال؟

-بعضه معي والبقية في البنك.

- أرني المبلغ الذي لديك الآن.

Twitter: @ketab_n

فتح حسن حزامه ببطء وأخرج اثني عشرة قطعة من فئة «البهلوي» ووضعها على طاولة الحاكم. فعدّها الرجل.

-هل أنت متأكّد من أنّ هذه النقود هي كل ما عندك الآن؟

-نعم هي كل ما أملك... بإمكانك التأكّد من ذلك.

وقدّم إليه الحزام.

أصدّقك... و البقية متى تستطيع أن تسلّمها لي؟

- متى تشاء...

لقد جمع حسن من النقود خلال الشهر الأخير ما جعله يضطرّ لأن يفرغ حزامه الذي صار ثقيلا جدّا. ودفن ماله تحت شجرة توجد في أرض تقع خارج المدينة كان قد اشتراها.

قال المدعي:

-يجب أن يتمّ كلّ هذا في سريّة تامّة. ولكن لا يمكنني أثق بك. فأي صفقة تقترحها علي؟

واقترح حسن أن يسمح له بالذهاب إلى البنك لسحب ماله لكي يتسنّى له تسليمه في مكان متفق عليه.

-وأي مكان تختار؟

وتحدث حسن عن حديقته الصغيرة التي تقع في مدخل المدينة، حيث لا يمرّ أحد أبدا، وخصوصا ساعة الغروب. وتردد الرجل قليلا، ثم وافق.

-لا تحاول خداعي. سآمر بمراقبتك أثناء وجودك في الخارج، فلا تحاول الهرب.

وكان حسن قد عاين منذ زمن طويل جدا فرعا للبنك القومي يقع في قلب المدينة ويفي بالغرض. وتقرّر أن يسحب ماله من البنك في حوالي منتصف النهار وأن يتم التبادل في الحديقة في المساء نفسه.

كان الدخول إلى المؤسسة والخروج منها بعد نصف ساعة بعلبة ملفوفة أمرا سهلا جدا على المحتال الذي لاحظ أنه مراقب. وبعد ذلك

Twitter: @ketab_n

تخفى بين في الزحام، ثم انتظر آخر النهار بهدوء.

وفي حوالي الساعة التاسعة من ذلك المساء نفسه، اقتربت سيارة من حديقة حسن. ودخلت العربة عبر سياج صدئ تم إغلاقه بعد ذلك. كان المكان هادئا ومحاطا بجدران عالية. وفي أحد الأركان، كان يوجد كوخ صغير يحتوي على أثاث حديقة وأدوات.

كان المدعي قد أتى وحيدا. وكان حسن قد توقع ذلك. فلا يمكن لأحد أن يفكّر في اقتسام مبلغ مماثل مع شخص آخر.

-إنه مكان جميل ومريح... متى اشتريته؟

- منذ زمن غير بعيد. و إني آتي إلى هنا أحيانا مع بعض الأصدقاء كلما اشتدت الحرارة في المدينة وأحسست بالإرهاق قليلا. ليس لدي سيارة خاصّة ولا أخشى السير على قدميّ.»

وكان الحاكم الإسلامي يريد أن ينتهي من الأمر.

-إني على عجلة من أمري. فهلاّ انتهينا من الموضوع بسرعة؟

- بالتأكيد، يا سيّدي... من هنا، اتبعني

وتبعه الرجل. وحينئذ تمّ كلّ شيء بسرعة: ما إن دخل المدرّس إلى الكوخ، حتى أمسك بمعول وهوى به على رأس المدّعي بكلّ قواه. ولم تصدر أيّة صرخة ولا حتّى أنّة، فقط صوت سقوط جسم. وفي الظهيرة كان حسن قد حفر في المكان نفسه جبّا عميقا يتسع لرجل منكمش. وبيد خبيرة نزع عنه حسن زيّه الديني متحاشيا تلطيخه. وألقى بالجثة في الجب ثم سكب عليها ماءَ جير حاميًا. وبعد نصف ساعة كانت الحفرة قد ردمت، وأخفت الأدوات وأثاث الحديقة كل أثر.

أغلق حسن باب كوخه بالقفل، ثم البوابة الخارجية. وقاد السيارة مسافة كيلومتر في اتجاه «رافار» في الشمال مطفئا الفوانيس. وعندما صار فوق أحد الجسور، نزل من السيارة وتركها تسقط ثلاثين مترا إلى الأسفل في مياه جدول متدفّقة.

Twitter: @ketab_n

وما إن بزغت الشمس حتى نهض وأسرع بتنظيف بقع الدم القليلة التي كانت تلطّخ عمامة المدعي وملابسه. وكانت الصخرة التي يقف عليها تمكنه من مراقبة الأماكن المحيطة. كان بعيدا عن الأنظار ولا يمكن لأي كان أن يزعجه. وعندما جفّت الملابس ارتداها بعد أن أخذ حافظة النقود و الساعة وما تبقى من حاجيّات ضحيّته الشخصيّة، ثم حفر حفرة ليواري فيها ثياب الحاكم، وأخيرا أحرق وثائق الحاكم التي من شأنها أن تدينه.

وحينئذ فقط تساءل عما سيفعله وأين سيذهب. إذ لا بد وأن تكون حالة الطوارئ قد أعلنت. لقد اختفى من السجن، واختفى المدعي أيضا. وسيتمّ العثور على السيّارة. وسيقع استجواب سكان قرية «رافار» و«دار بند» بل وربّما أيضا «نابندان» التي تقع على مشارف الصحراء.

وتذكر أنّه قد قام برحلة غداء في أحد الأيام، صحبة العائلة التي كان يقيم عندها في كرمان. فكانت الطريق تمتدّ إلى الجهة الأخرى من الجبل ثمّ تصعد من الشعب العميقة لتصل إلى سفح الصخور الشاهقة. ولكن تغير الطقس الذي حدث بسرعة حال دون وصولهم إلى قرية «كوباييه»التي كانت هي الهدف من الرحلة. وكان على السيارة أن تعود من حيث أتت. وفي ذلك اليوم، كان عليه أن يمشي أكثر من ثلاثين كيلومترا على قدميه للوصول لهذه القرية. و شرع في السير.

ولحسن الحظ، فبعد أقل من ساعة تجاوزته حافلة قديمة وتوقفت. وأطلّ السائق من النافذة:

-تعال، أيها الرجل الصالح، سأوصلك؟

فوجئ حسن بذلك. وكان من شأن رفضه أن يثير الشبهات.

-سآتي معك... كم هو الثمن؟

قال السائق مازحا:

-إن الله لا يدفع، إنما نحن الذين ندعوه !

Twitter: @ketab_n

وجلس حسن في آخر الحافلة. وكان ثمانية أشخاص يجلسون، محمّلين بحزم وصناديق. وكانوا نائمين جميعهم، فلم ينتبهوا إليه.

وبعد نصف ساعة، وصلت السيارة إلى «كوبابيه»، وكان يوم السوق.

وانتشر خبر وصول رجل الدين في القرية مثل النار في الهشيم. صحيح أن آخرين كانوا يأتون من حين لآخر. ولكن ذلك لم يكن يحدث إلا في المناسبات، فمن أين قدم هذا الرجل؟ وأين كان «الكدخدا»؟

وهرول ابن الأبّار مسرعا يبحث عنه:

-مشهدي إبراهيم! مشهدي إبراهيم !

ودخل بشكل مفاجئ إلى المحافظة، وهناك رأى «شكرالله»:

-هل «الكدخدا» موجود؟

- إنه في الحقل الخلفي.

ووجد الصبي العمدة جالسا على العشب قرب الراعي يدخّن غليونه الذي لا يفارقه أبدا.

-تعال يا مشهدي إبراهيم... تعال بسرعة

ورفع الشيخ رأسه.

-ماذا يحدث يا رحيم؟ لماذا أنت متعجّل هكذا؟

وصاح الصبي وهو يأخذ يد «الكدخدا» ويساعده على القيام:

- تعال بسرعة! إنّه هناك...إنّه هناك!

- و لكن من الذي قد وصل؟ أخبرني!

- الملا... الملا... لقد قدم صحبة نصر الله في الحافلة.

ولم يتمكن إبراهيم من تتبع الصّبي إلاّ بصعوبة بالغة. وعندما وصلا إلى الساحة كانت السوق على أشدّها، ولكن لم يكن يوجد أي مُلاّ.

-قل لي يا نصر الله، ما الحكاية؟ هل أحضرت معك مُلاّها؟

- نعم أيها «الكدخدا»، لقد كان معي ملاّ ولكنّه قليل الكلام. ولم أشأ أن آخذ أجرا على ذلك... فسيعوّضني الله في يوم من الأيام. لقد ذهب

Twitter: @ketab_n

من تلك الناحية و سأل عن حاكم هذا المكان.

وعاد العمدة والصبي على أعقابهما واتّجها نحو مقرّ البلدية. وما إن دخلا حتى رأيا حسَنًا لاجيفردي. لقد كان موليا ظهره و يجلس إلى الطاولة منتظرا أن يقدم له شكر الله ما يطلبه.

قال إبراهيم:

-السلام عليكم.

وردّ عليه رجل الدين السلام، ثم أردف:

-حماك الله أنت وأهلك.

انحنى العمدة قليلا إلى الإمام، علامة على الاحترام لكي يشكره، ثم قال:

-مرحبا بك بيننا أيها الرجل الصالح... الشيء القليل الذي نملكه هو لك.

صبّ له شكر الله الشاي وقدّم له بعض الحلويات والغلال. وكانت تصدر عن الغريب ضجّة وهو يشرب ويلتهم الطعام بنهم. إنه لم يأكل شيئا منذ البارحة، وقد سببت له الأحاسيس العنيفة جوعا كبيرا. وعندما أحسّ بالشبع، استقام في جلسته ومسح فمه بظاهر يده ثم قال:

-اسمي حسن لاجيفردي وأذرع البلاد باسم الإمام لكي أنشر كلامه وكلام الله...

وكان الجميع يتفرّسون في الرجل المتكبّر الذي يضع على رأسه العمامة السوداء العريقة التي يرتديها «الأسياد» الذين ينحدرون من سلالة الرسول. وكانت جبّته البنية الفاتحة الطويلة والمهترئة قليلا تصل حتى قدميه العاريتين الداميتين اللّتين تحملان صندلا.

وهمهم إبراهيم وشكر الله ورحيم الصغير بصوت واحد:

-الحمد لله ورسوله... أطال الله عمر إمامنا المحبوب.

- لقد قدمت إلى كزمان، وقبل كرمان كنت في يزد، وقبل يزد في

Twitter: @ketab_n

أصفان، وقبلهما في قمّ، مدينتنا المقدّسة...

قال العمدة:

- إنّك هنا في مدينتك. نحن أناس بسطاء الحال ولكن شرفاء ونشيطون. اطلب أي شيء تريد وستحصل عليه. إن الله هو الذي أرسلك إلينا. فمرحبا بك.

- أنا أرمل ووحيد ولا أرغب إلا في بعض الدفء بين أناس بسطاء وطيبين.

كان الجميع يأكلون ويشربون، وعندما فرغ إبريق الشاي، قطع لاجيفردي الصمت:

-لقد سمعت عنكم في الوادي كلّ خير، وعندئذ قرّرت أن أزوركم وأن أمكث بعض الوقت بينكم قبل أن أواصل طريقي. ولكن لسوء الحظ فإن مقامي بينكم سيكون وجيزا...

كان مشهدي إبراهيم فخورا بتلك الزيارة. وأسكن المسافر في أجمل غرفة في مبنى المحافظة. وفي المساء نفسه، تمّ تقديم حسن لاجيفردي إلى أهل القرية. واندمج مع الناس بسرعة بفضل ورعه وتفانيه اللذين حازا على إعجاب الجميع.

وسرعان ما استسلم «الكدخدا» لتأثير الضيف. فكان يسعى لمرافقته ويحب سماعه عندما يحدّثه عن رحلاته وعن حجّه لمكّة ولقاءاته مع الإمام في العاصمة...

عندما وصل غربان علي إلى القرية ذات مساء ووجد نفسه فجأة في مواجهة القادم الجديد، خيّم صمت لم يدم سوى لحظات تلته بعض المجاملات، ثم تحادث الرجلان في أمور غير ذات شأن. ووحدها عين خبيرة كانت تستطيع أن تحزر أنهما كانا يعرفان بعضهما من قبل.

بعد مدّة وجيزة، قبل إبراهيم أن يضع منزل «الأرباب» تحت تصرّف رجل الدين، بعد أن ألح عليه غربان علي. وأوكلت لامرأتيْن من القرية

Twitter: @ketab_n

مهمّة خدمته. ومنذ ذلك الحين، صار المدعوّ الشيخ حسَنًا بلا شكّ أهمّ شخصيّة في «كوباييه».

وبمرور الأشهر، بدأت تظهر بوضوح هيمنة رجل الدين المزيّف على العمدة، ،وبدأ يملي عليه رغباته.

لقد كان يعرف كيف يتملّق، كما كان بارعا في فن النصيحة وإدارة الأمور في الخفاء، وكان بذلك يتيح لمشهدي إبراهيم جني ثمار حيله هو بمفرده.

وكوّن الشيخ بسرعة ثروة صغيرة، إذ شملت مهامّه أن يلعب في نفس الوقت دور موثّقِ عقود ومحام ووسيط ومُراب، وبالطبع كاتب ومستشار لأهل القرية.

وهكذا غدا بيت «الأرباب» وكأنّه محكمة يقوم فيها الملاّ بجميع الأدوار، من الدفاع إلى الادعاء. ولما كان لكل خدمة ثمنها، فقد صار حسن بعد زمن وجيز مالكا لبعض الفدانات من الأرض، ولنصف دزينة من الغنم ولعدد من الدواجن، بل والأهمّ من ذلك صار يملك حقلا يحاذي الجدول الذي يزوّد «كوباييه» والوادي بالماء.

وكانت موافقة العمدة وأعوانه تجعل جميع العمليّات التي يقوم بها قانونيّة. وقد حذرت زهرة خانم إبراهيم عبثا بقولها إنّ هذا الشخص الرهيب ليس سوى مشعوذ ومحتال. فلم يشأ أن يأخذ برأيها، مكتفيا بالقول إنها لا تفهم شيئا في الأعمال وإنّ الأمر لا يعنيها.

و قالت لنفسها:

-يا لإبراهيم المسكين، ليته يعي ما يفعل!

لم يغادر إبراهيم القرية سوى مرة واحدة طوال حياته المديدة. ولما كان فقيرا جدا بحيث لم يستطع سبيلا إلى الحجّ لمكّة أو «كربلاء»، فقد ادّخر ريالا بعد ريال لزيارة «مشهد» يوم عيد ميلاده الثلاثين. وقد دامت هذه الرحلة إلى الطرف الآخر من البلاد شهرا. ولما عاد كان قد تغيّر

Twitter: @ketab_n

تماما، وكأن البركة قد شملته. لقد صار هادئا ومتّزنا بعد أن كان طائشا. وقرّر أن يدرس ساعة كلّ يوم ليتعلّم الأرقام والأبجدية، وهو الذي كان متشردا ولا يثير اهتمامه شيء.

وإثر عودته من الحج في مشهد، لُقّب «بمشهدي» وهو ما أضفى عليه شيئا من الهيبة بين مستخدميه.

ولما كان الحاكم الأول في قرية تعد مائتين وخمسين ساكنا، فقد كان يحظى بنفوذ واسع. لقد كان يمدّ يد المساعدة لأهل القرية من ولادتهم لموتهم، وكانوا جميعهم أصدقاءه. ولم يطلب أبدا أجرا على عمل أنجزه، غير أنه لم يكن يرفض دجاجة أو كيلوغراما من الأرز مقابل سعي أو تدخّل. والحال أنه منذ قدوم حسن إلى القرية، لم تتوصل زهرة لأن تفهم الاهتمام الذين صار يوليه مشهدي إبراهيم للمال.

وكان الملاّ وإبراهيم في كثير من الأحيان يختليان في منزل المالك القديم. ولم يكن أحد يعلم ماذا يدور بينهما من حديث. وبعد ذلك، تبعهما غربان علي الذي كانت أعماله في «كرمان» تدرّ عليه ربحا وفيرا، ثم هاشم، أرمل فيروزة.

وكانت أصوات عالية تتناهى إلى مسامع زهرة التي تقطن في المنزل المجاور، غير أنّها لم تستطع معرفة ما يدبّر من مكائد. وكانت متأكّدة من أنّه مادام حسن مسيطرا عليهم، وما دام العمدة متواطئا معهم دون أن يدري فلا بدّ أن يكون الأربعة بصدد تدبير مكيدة ما. وكانت تصلها أصوات الملاّ وزوج ثريّا أكثر من غيرها.

وقد أثار الدور الذي يلعبه مشهدي إبراهيم ريبة ثريّا. فقد كان منزله ملكا له، وأولاده كبارا ومستقلين، ومداخيله المتواضعة تفي بحاجته، ولم يفكر أبدا منذ موت زوجته في الزواج ثانية، وقد تعوّد على ارتداء ثياب متواضعة جدّا، ولم يكن يحتاج لشيء.

ورغم أن شائعات قد ترددت منذ بعض الوقت مفادها أنّ غربان علي

Twitter: @ketab_n

يريد الزواج مجدّدا من فتاة صغيرة من المدينة، فلا أحد رأى هذه الفتاة بعد. على كل حال ما كان الطلاق ليؤثّر في ثريّا، فمنذ سنوات لم تعد تربطها بزوجها أيّ علاقة. غير أنّه إذا ما تمّ فإنّ غربان علي سيدفع الثمن غاليا، مادامت ثريّا لم تخطئ في حقّه.

ولذلك السبب خالفت العجوز مبادئها ونادت العمدة في الساحة ذات يوم بصوت عال حتى يسمعها الجميع.

-اسمع يا إبراهيم، عندما تنتهي من عملك، تعال لمقابلتي... أسرع فإنّي في انتظارك.

لم يسبق لزهرة خانم من قبل أن دعت أحدا من سكان القرية إلى منزلها، وخصوصا بذلك الشموخ والتسلّط. توقّف العمدة قليلا، ونظر إلى صديقته ثم ابتعد.

وصاحت زهرة:

-لا تنس... إني أنتظرك...

وفي نهاية الظهيرة طرق إبراهيم باب زهرة:

-ادْخل، فالباب مفتوح... لقد أبطأت في القدوم.

همهم العمدة بكلمات غير مفهومة ثمّ جلس.

-لا بد أنّك قد طلبت الإذن من السيد لاجيفردي قبل قدومك إلى هنا. فهل ولّى الزمن الذي كنت فيه السيّد في قريتك؟

- أنت تتجسّسين عليّ إذن؟

- ولماذا تريدني أن أتجسّس عليك؟ فأنا أراك عبر نوافذ بيتي دائما وأنت تدخل منزله أو تخرج منه. في الماضي، كنت تقضّي معظم الوقت في منزلك أو في مقرّ المحافظة أو في الحقول. والآن كأنك صرت تسكن مع هذا الشخص!

- مازال لسانك كلسان الأفعى يا زهرة، ألن تتغيّري أبدا؟

- وهل تظنّ أنّ قرودا عجائز مثلنا يمكنها أن تتغيّر في هذه السنّ؟

Twitter: @ketab_n

لقد فات الأوان، وهذا ما يثير جزعي يا مشهدي...

- وما الذي يثير جزعك؟

- أن لا أجد فيك إبراهيم الذي كان الجميع يحبّونه ويحترمونه. فمنذ وصول هذا الشخص صرت تحت سيطرته تماما. دون أن أتحدّث عن غربان علي وهاشم اللّذيْن يثيران من الشفقة أكثر ما يستحقان من اللّوم.أمّا أنت، في سنّك هذه.. فهذا أمر لا يعقل.

- و لكنّي لم أتغيّر وأنت تعرفين ذلك جيّدا.

- أنت تظنّ ذلك، ولكنّك قد تبدّلت كليّا يا صديقي المسكين. لا أعرف ماذا تفعل عند هذا الرجل ولكنّ قلبي يحدّثني بما يدبّر، فَثِقْ يا مشهدي إبراهيم أنّك حتّى وإن كنت «كدخدا» فإني لن أسمح لك بمضايقة «ثريّتي» الصغيرة، وأنا على يقين من أنّ الأمر يتعلّق بها، أليس كذلك؟ إنّ كلّ من في القرية يعرف ذلك!

- وماذا يعرف كلّ من في القرية؟

- أنكم تدبّرون مع غربان علي مكيدة ضدّ ثريّا!

وأجابها إبراهيم بهدوء:

-صحيح أنّ غربان علي يريد أن يتزوّج من فتاة لطيفة من المدينة وأن يستقرّ في كرمان. وصحيح أيضا أنّ زوجته لم تعد تلبّي حاجيّاته، بل ويمكنني القول إنّ غربان علي يلومها كثيرا. فهي لم تعد تعتني به، وصارت تهمل أطفالها وتطبخ بشكل سيّئ، وهو يرى أنها تتردد على هاشم أكثر من اللازم منذ وفاة فيروزة...

وقاطعته زهرة:

-يا إبراهيم اللاهوتي، انظر في عيني... هل تدرك معنى الكلام الذي تقوله؟ ألا تخجل! فليس يوجد في هذه القرية أمّ وزوجة أفضل من ثريّا وأنت تعلم ذلك!

- كلّنا نعتقد أن ثريّا تتردّد على هاشم أكثر من اللازم وأنها تقضّي

Twitter: @ketab_n

في منزله زمنا طويلا جدّا.

وثارت زهرة:

- و لكنّنا نحن جميعنا الذين طلبنا منها ذلك.فلم يكن أحد يريد القيام بهذه المهمّة. وقد اخترنا كلنا ثريّا. هل نسيت؟ بل وكنت أنت من رافقها في المرّة الأولى إلى منزله!

خفض الشيخ رأسه ولم يقل شيئا.

-أريد أن أعرف ماذا يحدث!

- هذه شؤون رجال وليست شؤون نساء بل إنّك لن تفهمي منها شيئا.

- وأنت، ما الذي تفهمه من كلّ هذا؟ مع أشخاص مثل حسن وغربان علي تكونون فرقة جميلة: أنت، وأرمل، و ملاّ مزيف، وشخص تافه...

- لا أسمح لك بأن تتكلّمي هكذا. السيد حسن لاجيفردي رجل تقيّ ولذلك عليك أن تحترميه. أنا لا ألومه في شيء وأنت كذلك، فهو زينة قريتنا.

- أنت تعرف جيّدا أنّك تكذب يا إبراهيم. و لكنّه خلب لبّك لدرجة أنّك لم تعد كما كنت. إنك لم تعد صديقي، وأنا أخجل في مكانك.

كانت العجوز قد استشاطت غضبا وما كان يمكن لشيء أن يوقفها.

-لقد خسرت كلّ شيء خلال بضعة أشهر، خسرت كلّ ما كان يعطيك الحقّ لكي تكون حاكم قريتنا: السيطرة والنزاهة والشجاعة والاستقلالية والطيبة... انظر إلى نفسك، إن كنت مازلت تجرؤ على النظر إليها في المرآة، إنك لم تعد «الكدخدا» الحقيقي منذ زمن طويل والقرية بأسرها تعتقد نفس الشيء. إنّ هذا يثقل كاهلنا جميعا. وأنا أحذّرك يا مشهدي إبراهيم، لأني الشخص الوحيد هنا الذي مازال يجرؤ على أن يكلّمك هكذا: لا تتجاوز حدودك، وإلا فإنّك ستجدني دائما في طريقك، مثلما اعترضت طريقك مرات عديدة.. ألا تتذكّر؟

□ □ □

لم تُولِ ثريّا الكثير من الاهتمام لما كان يُدبّر في بيت «الأرباب» القديم.

Twitter: @ketab_n

إنّها لم تفعل شيئا تُلام عليه وكانت تظنّ أن غربان علي وهاشم في صفّها. غير أنّ زهرة كانت تحاول أن تحذّرها:

-احذري منهما، فهما أيضا قد تغيّرا. منذ ترمّل هاشم صار يتبع زوجك مثل كلب وفيّ وأصبح تحت سيطرته. ولسوف يتبع مصلحته أينما كانت. لم تعد فيروزة حيّة لتوجّهه. ومنذ أصبح زوجك يتردد على المدينة، أحضر لنا من هناك كلّ العادات السيئة.

كانت ثريّا تلازم الصّمت. إنّها تعرف أنّ العجوز على حقّ، ولكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ فهي لم تعد تتحدث مطلقا مع زوجها منذ زمن طويل. كما أنّ ابنيها الكبيرين يتحاشيانها. أما أولادها الصغار فكانوا يكبرون في الشارع ولا يعودون إلاّ عندما تغيب الشمس خلف الجبل، ملوّثين بالغبار والأوحال.

أصبحت زهرة غير قادرة على تحمّل ما يحيط بها من عداوة و قرّرت ذات يوم أن تصمت نهائيا. وحينئذ عرفت أنّها قد ضيّعت فرصتها الأخيرة وأنّه سيصعب عليها بعد ذلك أن تدافع عنها مادامت ترفض الإفصاح عن نفسها.

□ □ □

أمّا حسن لاجيفردي فما كان ينقصه شيء، وخصوصا الطعام. فقد تعوّد موظّفوه على أن يحضروا له كلّ صباح لترا من الحليب، وبعض الجبن والخبز. كان مبجلا، وكلّ خدمة يؤديها يأخذ عنها عمولة.

وهكذا اكتسب بفضل الأعمال والصفقات مالا كثيرا مكّنه من أن يصبح في زمن قصير واحدا من مزوّدي الجبل، كما أنّه كان يقوم ببعض العمليات مع صعاليك من السهل وذلك عبر وساطة غربان علي. غير أنّ كلّ ذلك كان يتمّ في الخفاء ولم يكن اسمه يظهر في أيّ مكان، إذ كان يكفيه أن يعطي الأوامر. وكان زوج ثريّا هو الذي يوقّع على جميع الأوراق الرسميّة فتنطلي الحيلة.

Twitter: @ketab_n

وهكذا، بفضل تلاعب متقن بالوثائق، صار غربان علي مالكا لحديقة صغيرة تقع خارج المدينة الكبيرة، وتحتوي على أشجار جميلة وكوخ صغير... وتمكّن مشهدي إبراهيم بفضل هذه الألاعيب من الحصول على بعض الحصص من أرباح المبغى الذي كان قد زاره مرّة، غير أنّه رفض الاستسلام لغواية الجسد.

كان كل واحد منهم يدير أعماله ملقيا بالمسؤولية على عاتق الآخر، وكان حسن يقود المجموعة.

كان مشهدي إبراهيم بلا شك أكثرهم تعرّضا للاستغلال. فمنصبه كعمدة يمكّنه من سلطة مطلقة بين أهل القرية، وختمه على الوثائق يضفي صفة قانونية من بعض النواحي على تجارة الشيخ حسن وغربان علي غير المشروعة.

وكان الملاّ يحرّر العقود والوثائق على هواه. ولم يكن أحد يقدر على معارضته لأنّ أغلب الناس لا يحسنون القراءة، أمّا أولئك الذين يحسنون الكتابة بعض الشيء فسرعان ما اختلط الأمر عليهم بسبب المصطلحات الرسميّة.

ولم يكن «الكدخدا» يعترض. كان يوقّع على كلّ ما يجب التوقيع عليه ويقوم بدوره كحاكم قرية بشكل رائع متقبّلا شتائم زهرة وكأنّها تشجيعات للمضيّ في الطريق التي رسمها له حسن. وبدا أنّ هذه الأمور لا تثير اهتمام أحد في القرية. في بعض الأحيان، عندما كانت تصدر بعض التلميحات عن حسين علي وحسن علي، ابنيّ غربان علي، أو عندما كانا يكثران من طرح الأسئلة، كان الرباعي يجيب على كل تساؤل، وكان هاشم متواطئا معهم كليّا. كلّ ما طلب منه هو أن يتّهم ثريّا ويؤكّد أنّها تضايقه وتراوده عن نفسها. كما كان يتوجب عليه أن يقول إنّها حاولت إغراءه عديد المرات، بل إنّها قامت بمداعبته وتلفّظت مرارا بكلمات لا يجوز للمرأة المتزوّجة أن تقولها إلاّ لزوجها.

Twitter: @ketab_n

لكن كل ما كان يخشاه العمدة هو أن يبدو شريرا أمام زهرة التي ما انفكّت تترصّد أقلّ حركاته من وراء زجاج نوافذها. كان يعرف أنها تعرف فكان يحاول إنقاذ المظاهر قدر الإمكان والمحافظة على ما تبقّى له من هيبة في عينيها، مهما كانت ضئيلة.

لقد سيطرت عليه هذه المرأة منذ أكثر من خمسين عاما، وكانت تفرض عليه رأيها دائما وتحصل على ما تريد. ولم يستطع أبدا أن يرفض لها طلبا، لكنّه سيواجهها الآن، إذ ليس لديه خيار آخر. كانت المؤامرة متواصلة. فعليها تتوقّف مصالحه ومصالح حسن. وكان يحرص على تفادي الوقوع في أيّ مشكلة مع هذا الرجل الذي سيطر على القرية في زمن وجيز. هل يكون أحد قد أرسله؟ وهل صحيح أنّ له علاقات مع ذوي النفوذ؟ وهل هو قادر على أن يجعل الشرطة أو الحرس أو حاكما إسلاميّا يتدخلون لصالحه مثلما كرّر مرارا؟

□ □ □

كان إبراهيم طيلة حياته ضعيف الشّخصية. وقد تعلّم أن يصمت ويُطئطئَ رأسه عندما يأمره «الأرباب». وكان يصمت أيضا إزاء تصرفات زوجته الشاذة التي تأتي إلى «كوباييه» سافرة، وإزاء استفزازات أولاده الّذين يضايقون فتيات القرية.

ولكن مادامت زهرة تستفزّه و تهينه في أقلّ مناسبة فلسوف ترى هذه المرّة ما هو قادر على فعله.

لن يوقفه شيء. وما إن يثبت حسن وغربان علي التّهمة على ثريّا بمساعدة هاشم ويعرضون الأمر في الساحة العامة، فسوف يؤيّد أقوالهم ولن يتراجع إلى النهاية...

Twitter: @ketab_n

- 4 -

إنّ زهرة التي تعتبر كبيرة القرية، جعلتها خطوب الزمان كثيرة التجاعيد ومحدودبة الظهر. كان الجميع يخشاها، إلا أن كل واحد كان يسعى لإيجاد حظوة لديها.

منذ عشرات السنين ما كان ينجز شيء دون استشارتها. كان لها رأي في كل شيء، سواء تعلّق الأمر باستصلاح الغابة، أو ببناء جسر صغير أو توسيع الآبار أو الزيجات أو عمليات الدفن.

لم يكن أحد يعرف سنّها على وجه التحديد، ولا سن مشهدي إبراهيم، ولكن المؤكد أنهما قد تجاوزا السبعين بكثير.

لقد تعودت منذ نعومة أظفارها، وفي جميع الفصول، على الذهاب إلى النهر ثلاث مرات في الأسبوع لغسل ملابس العائلة.

كان ذوو الرأي يأتون لاستشارتها وطلب نصيحتها. الكل يعرف أن مشهدي إبراهيم لم يكن يملك الخصال التي تؤهله لخلافة أبيه العمدة بعد موته. غير أنّ زهرة فرضته فرضا ولم يكن أحد قادرا على الاعتراض.

كانت تقسّم وقتها بين الجدول ومنزلها، تتكلّم قليلا، وتسمع كثيرا وترى كل شيء. وباستثناء عائلتها، لم تكن تستقبل سوى قلّة من الزوّار.

وكانت زهرة مطلعة على أدقّ تفاصيل حياة كلّ فرد في «كوبابيه»، فهي تشرف على الولادات وعمليّات الختان، وتشد أزر الأزواج الشبّان الذين تنقصهم الخبرة ليلة زفافهم، وقد شهدت وفاة جميع أصدقاء طفولتها، الواحد بعد الآخر. كانت ترفض دائما الذهاب إلى المدينة الكبيرة، ولكنها كانت على علم بما يحدث في «كرمان» بواسطة الكلمات التي تصلها عنها.

Twitter: @ketab_n

الحافلة التي تأتي إلى القرية طالما أثارت نفورها، كما أنّ وصول «الأرباب» وعائلته أيام الخميس بعد الظهر لم يكن يثير اهتمامها. وفي أيام «السيزدَهْ بدر»، التي تأتي بعد «النوروز» بثلاثة عشر يوما، حين يترك جميع أهل القرية بلدتهم مثلما تقتضي التقاليد كانت تبقى في منزلها وحيدة، فتصبح القرية حينئذ ملكا لها، فتراها تروح وتجيء بين المنازل الخالية لا يرافقها سوى بعض الكلاب الضالّة والغربان الجاثمة على الأشجار وفراشات الربيع الأولى.

منذ سنوات لم تعد تشارك في الاحتفالات الجماعيّة، ولا حتى في الأعراس. ولم تعد تظهر سوى في مواكب الدفن، وحينئذ يراها الناس متجهة إلى المقبرة الصغيرة التي تقع وسط الأشجار، تودّع إحدى رفيقاتها وداعا أخيرا.

لم يسبق لزهرة أن غادرت القرية وضواحيها. فقد عاشت طيلة حياتها في المنزل نفسه، وهو مجاور لمنزل «الأرباب» الذي ورثه عن أبيه. وقد برهنت على استقلاليتها منذ صغرها.

في ذلك الوقت لم تكن البنات يذهبن إلى المدرسة. فقد كنّ يساعدن أمهاتهنّ في الأعمال المنزليّة ثم يزوّجن في سنّ مبكّرة لأحد أبناء الجيران، وهو ما كان يسمح أحيانا بضمّ قطعة أرض أو توسيع مسكن متداع.

لقد كان والدها أوّل من حفر بئرا في القرية، و كان لها شرف إخراج أوّل كميّة من الماء. ومنذ ذلك الحين سُمّي المكان باسمها.

في أحد الأيام، وصل من المدينة مدرّس متجوّل على متن عربة يجرّها بغل. وكان قد أحضر معه أقلاما ملوّنة وكتبا مصوّرة ونايا. واستقرّ في القرية أياما عديدة، فكانت زهرة الأكثر مواظبة على هذه الدروس المرتجلة.

وقد عمّقت هذا الاهتمام بالمعرفة عبر السنين. وفيما بعد، تولّت

Twitter: @ketab_n

بنفسها تدريس ما تعرفه، وكانت تفسّر ذلك بأنّ «اللّه ورسوله يعرفان القراءة و الكتابة و يتعيّن على كلّ مسلم فاضل أن يقتدي بهما.»

ورأى والداها ذات يوم أنّها قد صارت في سن الزواج، ففرضا عليها مرتضى، لكنّها رفضت. لقد فرّت طوال ساعات عبر الحقول، وعندما رجعت إلى المنزل مع حلول المساء، فسّرت ذلك بقولها إنّها لا تريد الزواج من شاب لا يعرف القراءة والكتابة.

في النهاية، قبلت الزواج من «نعمة اللّه» الذي يكبرها بعشر سنوات طالما أنه يعرف القراءة والحساب قليلا. وتمكّن بمساعدة زهرة من أن يصبح أقرب مساعد للكدخدا وصار يعتني بكل ما له صلة بالوثائق الإدارية والأرشيفات.

لم يكن مصير زهرة يختلف عن مصير بقية نساء القرية فقد صارت حاملا عديد المرات في ظرف عشر سنوات، أنجبت ستة أطفال من بينهم واحد فقط امتنع عن الاشتغال في الأرض مفضلا أن يصبح شرطيا في المدينة.

لقد استمرّت حياتها الزوجيّة مع «نعمة اللّه» قرابةَ الثلاثين عاما. وترمّلت قبل وفاة زوجة مشهدي إبراهيم بوقت قليل. حينئذ ظن الجميع أنّ الصديقين القديمين سيتزوّجان. لكن لم يحدث شيء من ذلك، وعادت الحياة إلى سالف مجراها.

بين ماء النّهر وشؤون بيتها الصغير كانت تقضي وقتها. بخلاف ذلك لم يكن يثير اهتمامها أيّ شيء آخر. لقد زوّجت أبناءها الواحد تلو الآخر، ولكن لم يبق أيٌّ منهم قربها. وبما أنّها كانت تتّخذ كلّ القرارات وتتدخّل في كلّ شيء فقد جعلت حياة الجميع لا تطاق في حين كانت هي تظنّ العكس.

وسرعان ما أظهرت زهرة خانم تفضيلها لابنة أخيها ثريّا. فكانت الأخيرة هي الوحيدة التي تسمح لها العجوز بزيارتها في أي وقت تشاء

Twitter: @ketab_n

ودون سابق إعلام. أما غربان علي فكانت زيارات زوجته لزهرة تثير خشيته لأنّه كان يعرف أنها تشكو إليها سلوكه وكسله وقذارته وأكاذيبه. كانت العجوز معروفة بشدة غضبها، وكان ذلك ما يثير خشية غربان علي.

كانت ثريّا متعلمة مثل زهرة، وقد حاولت نقل ما تعرفه إلى أولادها. ومثلها أيضا، كانت تعتني بمنزلها بشكل لائق وتربي أطفالها تربية جيّدة. كما أنّها لم تكن تتأخر في الأزقة ولا تكلّم أحدا ما لم ينادها.

وعندما بدا واضحا أنّ غربان علي يفضّل العيش في السّهل، وجدت ثريّا لدى العجوز ما تحتاجه من عزاء ونصيحة.

في ذلك الصباح، كانت زهرة خانم في مطبخها عندما سمعت فجأة أصوات صراخ. كان يوم سوق، وكانت تصلها أصوات الباعة. ولكن هذه الصيحات أثارت ريبتها، فاتّجهت نحو النافذة وأطلت: كان هناك حشد من الناس مجتمعين على بعد خطوات من منزلها، ولكنّ العجوز لم تفهم سبب هذه الصيحة:

«قحبة... ما أنت إلاّ قحبة وكلبة... وابنة كلبة !»

وسرعان ما تعرّفت على صوت غربان علي، زوج ثريّا. وما إن تلاشى ذهولها حتّى قرّرت الخروج والاقتراب من الحشد، وكانت الصيحات تزداد.

«عاهرة... ابنة قحبة... لعنة الله عليك أيّتها المرأة الفاجرة ...!»

بصعوبة، شقّت لنفسها طريقا بين الحشد ورأت ثريّا محاطة بجمع من الرجال والنساء يصرخون في وجهها ويعنّفونها. وكانت الفتاة تحاول اتّقاء غضبهم ولكنّها سرعان ما سقطت تحت وابل من اللطمات.

انقضّت زهرة على الحشد مُحاولةً حماية ابنة أخيها. فضربت هي أيضا.

-لا تتدخّلي يا زهرة خانم... فهذه القحبة لا تستحقّ حمايتك... اتركينا نؤدّبها...

Twitter: @ketab_n

قامت المرأتان وخيّم الصمت. ثمّ قالت زهرة وهي تنظر إلى غربان علي بازدراء:

-ماذا يحدث هنا؟ هل جننت؟ أتدرك ما تفعل؟

- إنّها تأخذ ما تستحق... لقد خانتني... هل تدركين معنى ذلك؟ لقد خانتني.

كان يسيطر على نفسه بصعوبة بسبب غضبه المستعر:

-كيف يعقل أن تكون قد خانتك؟ أين خانتك؟ ومتى... ومع من؟

- هناك، الآن، مع هاشم، لقد فاجأتهما للتوّ!

وصاح الحشد:

- هذا صحيح، إنّ غربان علي يقول الحقيقة فقد خانته...

لم تكن زهرة تفهم شيئا:

-وما جدوى الصياح هكذا، إنّي لا أسمعكم. تعالوا إلى منزلي، وسوف نتحدّث...

لقد أمسكت العجوز بثريّا من كتفها، وتبعها زوجها وحوالي عشرين شخصا من أهل القرية.

-لن تدخلوا إلى بيتي. لن يدخل سوى ثريّا وغربان علي. اطلبوا من «الكدخدا» أن يحضر، ولا أريد أحدا آخر هنا!

بقي الحشد أمام المنزل في انتظار مشهدي إبراهيم. وكانت ثريّا تبكي وغربان علي واقفا بجانبها يرتجف من الغيظ.

وعندما وصل العمدة سأل العجوز:

-ماذا يحدث؟ ماذا يجري؟

وقبل أن تجيب زهرة، زعق غربان علي:

-إنّها تخونني، لقد خانتني مع هاشم. كنت أعرف ذلك، وقد فاجأتها منذ قليل!

استدار إبراهيم نحو ثريّا وسألها:

Twitter: @ketab_n

-أصحيح ما يقوله زوجك؟ هل خنته؟

بذلت ثريّا مجهودا لكي تتكلم.

-هذا غير صحيح فأنا لم أخنه...

وصرخ الزوج مجدّدا:

-تكذبين... تكذبين... اعترفي أنّك تكذبين، كلّ القرية تعرف أنّك تكذبين وأنّك تخونينني. كلّ يوم تذهبين إلى منزل هاشم، وتعتنين به وبمنزله أكثر مما تعتنين بعائلتك. لقد مارست الجنس معه، والكلّ يعلم ذلك...

-هذا غير صحيح... لماذا تقول هذا الكلام؟ زهرة خانم إنّك تعرفين الحقيقة، فلا تسمحي له بأن يقول هذا الكلام!

كانت ثريّا متعلّقة بذراع العجوز تستعطفها بنظراتها.

سألت زهرة خانم الزوج وقد تأثّرت كثيرا بما سمعت:

-أنت تقول إنها خانتك للتوّ، فماذا فعلت؟

-إنها تعرف ماذا فعلت. لقد رأيتهما يبتسمان ويقفان جنبا إلى جنب يوشوشان... لقد فاجأتهما... إنها مذنبة... إنها تخونني...

و تدخّل إبراهيم:

-ثريّا، أصحيح ما يقوله زوجك؟

كانت المرأة تبكي مضطربة،وحاولت أن تشرح الأمر:

-كنت أقول لهاشم إنّي أعددت له غداءه، وإنّي غسلت له ملابسه وسأقوم بكيّ ملابس الأطفال هذا المساء في منزلي. لقد تبادلنا ابتسامة. وإنكم تعلمون جميعكم أنّني أعتني بعائلته منذ موت فيروزة، الكلّ يعلم ذلك...

- والكل يعلم أنّك تقضّين ساعات طويلة في منزله وأنّه يضاجعك. بل ويقال إنّك حامل منه...

-هذا افتراء، فأنا لم ألمس هاشم قط وهو لم يلمسني أبدا. كيف أجرؤ

Twitter: @ketab_n

على فعل ذلك فأنا امرأة متزوجة...

قال إبراهيم متشكّكا:

-ثريّا، إنّنا نعرفك منذ زمن طويل، ولكن ما هو مؤكّد هو أنّك صرت تقضيّن وقتا طويلا في منزل هاشم منذ ماتت فيروزة العزيزة، و أنا أفهم سبب تشكّي زوجك، فأنت تهملين بيتك وأطفالك.

-أنا لم أهمل أحدا أبدا. اسألوا زهرة خانم، واسألوا جيراني، فأنا أم رؤوم وزوجة وفية...

-هذا غير صحيح، فقد خنتني وكلّ القرية تعرف ذلك. إنّك تخونينني عندما أكون في كرمان و الشيخ حسن يعلم ذلك، وقد أخبرني... فاسأله يا مشهدي إبراهيم!

وأردفت زهرة:

-ليس خطأ أن يتحدث الإنسان مع زوجة أعزّ أصدقائه، وهاشم شاب طيّب، أرسلوا في طلبه وسوف يقول لنا الحقيقة.

وأحضر الأرمل إلى منزل زهرة، فسأله العمدة:

- قل لي يا هاشم، أي حديث دار بينك وبين ثريّا، عندما كنتما توشوشان؟

- لقد كانت تقول لي إنها سوف تأتي إلى منزلي لكي تعدّ غداء العائلة وتكوي ملابسي... ثمّ...

- ثمّ ماذا يا هاشم؟ تكلّم...

- ثم إنها كانت ترغب في أن تستريح بعض الوقت لأنّ السوق قد جعلتها منهكة القوى...

صاحت ثريّا:

- هذا افتراء، فأنا لم أقل لك ذلك أبدا. لقد قلت لك إنّي سآخذ ملابسك لمنزلي لكي أكويها بعد أن أستريح!

طأطأ هاشم رأسه دون أن يجيب.

Twitter: @ketab_n

وتدخّل غربان علي:

-هل ترون، إنّها تكذب، وكانت تكذب دائما!

نظر «الكدخدا» إلى زهرة خانم منزعجا بعض الشيء، وسعل بخراقة، ثمّ تابع قائلا:

-هاشم، اسمعني جيدا، إنّ الأمر في غاية الأهمية: هل قالت لك ثريّا إنها ستأتي لتستريح عندك بعد الغداء؟ أجب!

تردد الرجل قليلا، ودون أن يرفع رأسه نظر خفية في اتجاه غربان علي الذي كان يقف في مواجهته، خلف العمدة:

-هاشم، أجب عن سؤالي، نعم أم لا؟

-نعم ... نعم، لقد قالت ذلك ...

- انظر في عيني وأعد ما قلته.

- كان هاشم أخرق وفظّا، لا ينظر إلى الناس في عيونهم عندما يكلّمهم، ويخفض رأسه ما إن يحسّ بالخجل. وكان من شأن أقلّ مضايقة أن تجعله يلازم الصمت لساعات عديدة. وكان إبراهيم يعلم ذلك، غير أنه أراد أن يحصل من هذا الرجل على إجابة واضحة:

-هاشم، انظر إليّ جيدا. لا تخش شيئا، كلانا يعرف الآخر منذ زمن طويل... وأنا بمثابة أبيك. انظر إليّ جيدا وأجب بنعم أو لا...

ورفع الأرمل رأسه ببطء، متحاشيا نظرات المرأتين اللّتين كانتا تحدّقان فيه.

-إني أسألك من جديد. فكّر جيّدا قبل أن تجيب بنعم أم لا، هل عرضت عليك ثريّا أن تستريح عندك بعد الغداء؟ نعم أم لا؟

قام غربان علي بحركة خفيّة برأسه من الأعلى إلى الأسفل في اتجاه صديقه، وهي حركة لاحظتها زهرة في الحين. فوجّهت لزوج ثريّا نظرة صاعقة جعلته يخفض رأسه.

-نعم يا مشهدي إبراهيم، لقد قالت ذلك...وكانت تريد أن تفعل ذلك

Twitter: @ketab_n

مثلما فعلت مرارا... إنها تأتي إلى منزلي دائما... ولكني لا أحب ذلك... وهي تضطجع على السرير عندما لا يكون ثمة أحد... وتقول لي أشياء تضايقني... هذا صحيح، إني أقول الحقيقة ... وعليكم أن تصدقوني!

لم تكن ثريّا تصدق أذنيها:

-هذا افتراء... لم يسبق أبدا أن بقيت في منزل هاشم بعد إنهاء عملي...فنحن نترك الباب مفتوحا دائما... يا إلهي، ماذا أفعل كي تصدّقوني؟ أقسم بذلك أمام العلي القدير: كلّ ما قاله هاشم الآن هو افتراء!

ثم التفتت نحو الأرمل، وقالت له:

-لماذا تقول هذا؟... أنت تعلم أني أحبّك مثل أخي وأنّ فيروزة كانت أختا لي. فلماذا تسبّب لي الأذى؟

وخيّم صمت ثقيل دام بضع لحظات، ثم قال هاشم مؤكّدا إثر إشارة خفيّة أخرى من رأس غربان علي:

-يا مشهدي إبراهيم، إنّ كل ما قلته صحيح، أقسم على ذلك، فثريّا تأتي إلى منزلي دائما، حتى عندما لا أكون في حاجة إليها. وغربان علي يعلم ذلك، فأنا قد أخبرته. كما أنّ الشيخ حسَنا على علم بالأمر... ذلك أني قد أخبرتهما بالحقيقة.

ثم خفض رأسه من جديد، وكأنّه شعر فجأة بالخجل ممّا كان يقول.

مرّر إبراهيم يده على لحيته ثم استدار نحو الزوج متجاهلا وجود زهرة وسأله:

-هل هذا صحيح؟ هل كنت تعرف كل هذا؟

- أجل، يا مشهدي إبراهيم، ولكنّي لم أشأ أن أصدّق ذلك. أنا أحب زوجتي ولا أصدّق تلك الأمور. لقد حدّثني الشيخ حسن في الموضوع، وآخرون أيضا، عندما كنت أعود من كرمان، غير أنّي ما كنت أصدّقهم. وكان عليّ أن أرى ذلك بعيني وأن أفاجئهما. واليوم رأيتهما!

Twitter: @ketab_n

- ماذا رأيت؟ أعد ذلك على مسامعي مرّة أخرى!

- لقد كانا يتبادلان الابتسام ويتحدّثان بصوت منخفض، وكان كل منهما يمسك بيد الآخر. وقد انحنت عليه وقالت له شيئا في أذنه، كل هذا، وماذا...

وتدخّلت ثريّا مرّة أخرى:

-أنا لم أنحن عليه، ولم أكلّمه بصوت منخفض. كما أنّي لم ألمس يده، ولكن ربّما نكون قد تبادلنا ابتسامة، فأنا لم أعد أذكر. إنّي أبتسم للجميع في «كوبابيه»، نساءً ورجالا طالما أنّهم طيبون.

-يا ثريّا، ثمة رجلان حاضران هنا يتّهمانك بتصرّف لا يليق بزوجة ولا بربّة عائلة، فهل بإمكانك أن تثبتي لنا العكس؟

وثغثغت الفتاة التي أخذت على حين غرّة:

-أثبت... ولكن كيف أثبت؟... ليس لديّ ما أثبت... عليهم هم أن يثبتوا... أين، ومتى، وكيف... ماذا سيكون جوابهم... أنا شريفة ولم أعرف سوى رجل واحد في حياتي، هو زوجي... وليس لديّ ما أثبت، وإذا كنتم تقولون بالشراسة نفسها إني حامل، فانتظروا تسعة أشهر وسترون أنّه افتراء...!

وبدا أنّ هذه الجملة الأخيرة قد أثارت حنق العمدة الذي لم يكن يتوقّعها. فأردف قائلا:

-يا ثريّا، يظهر أنّك لا تعرفين قوانين مجتمعنا، كما أملاها علينا إمامنا المبجّل منذ سنوات. فعندما يتّهم رجل امرأة، عليها هي أن تُثبت براءتها. إنّه القانون. وفي المقابل، إذا اتهمت امرأة زوجها، فعليها هي أن تأتي بالأدلّة. هل فهمتني؟ أنت في موضع اتّهام، فأثبتي العكس وسوف نصدقك بلا مشقّة.

عندئذ خرجت زهرة من صمتها:

-إبراهيم، إنّنا نعرف بعضنا أكثر من اللاّزم بحيث لا يمكن لأحدنا

Twitter: @ketab_n

أن يكذب على الآخر، أليس كذلك؟ و لهذا أقول لك إنّني أشتمّ رائحة مكيدة. وليس على ثريّا أن تثبت شيئا. فهي شريفة ونشيطة كما أنها أم رؤوم وزوجة رائعة. وهي تساعد عائلة صديقتها فيروزة منذ موتها. وتريدها أن تثبت أنّها وفية و لا تخون زوجها. ولكن هل تدرك سخافة الموقف؟ لو كان الأمر يتعلّق بإحدى بناتك، هل كنت ستطرح كلّ هذه الأسئلة الغبيّة؟ بالطّبع لا. أنت تعرف أنّ ثريّا لم تفعل شيئا، ولكنّك لا تجرؤ على قول ذلك. فاعترف بذلك!

وحين فوجئ العمدة بشراسة العجوز، ترك العاصفة تمرّ ثمّ أجاب:

-لو أن إحدى بناتي تورّطت في وضعية مماثلة -لا قدّر الله- لتصرّفت على النحو نفسه، فلا يذهبنّ بك الظنّ بعيدا. وباعتباري عمدة هذه القرية، عليّ أن أواصل تحريّاتي، سواء أعجبك هذا أم لم يعجبك. إنّ هذه المرأة متّهمة بالخيانة من طرف زوجها ومن طرف هذا الرجل الذي يقال إنّه عشيقها. وسنحيط مولانا الشيخ حسنا، علما بذلك. وقد صرت أنا أيضا على علم بالموضوع منذ الآن، إضافة إلى أشخاص آخرين. وسيكون الحكم حكمنا.

دون أن يستأذن المرأة العجوز غادر المكان يتبعه غربان علي وهاشم. وفي الخارج، كان أهل القرية الذين ظلّوا ينتظرون أمام المنزل قد تفرّقوا.

لقد ظلّت زهرة خانم صامتة من فرط الذهول، أمّا ثريّا التي اشتدّ بها الإنهاك فكانت تجلس على الأرض مباشرة، شاحبةً، وعاجزة عن الحركة و الكلام.

وفجأة استولى الفزع على زهرة. لقد كانت تعرف ثريّا حقّ المعرفة وتعلم أنّ الفتاة عاجزة عن الدفاع عن نفسها. وقد تأكّدت من ذلك دائما. ففي صغرها، عندما كانت تتّهم بارتكاب خطإ، كانت تخفض رأسها وتستسلم للعقاب دون أن تقول شيئا.

لم تتقبّل زهرة أبدا سيادة الذكور في القرية. ولم تكن تلزم الصمت،

Twitter: @ketab_n

فكان كثير من الرجال يخشونها.

ولكن منذ الثورة، أصبح الرجال يسيطرون على البلاد، وكان على زهرة أن تعترف بهزيمتها وتذعن.

وكان من شأن أيّة محاولة منها للتصدّي أو لاتّخاذ موقف أن تؤوّل بشكل سيّئ وتعود عليها آليا بالمضرّة، مع ما يتبع ذلك من نتائج يمكن تخيّلها في مثل ذلك الجوّ المليء بالعنف والحقد على النساء!

يوم وصول الشيخ حسن فهمت ثريّا أنّ الشيطان قد دخل إلى القرية وأنّ لا أحد سوف يخرجه منها. ففي زمن وجيز، صار الملا، الذي لا يمكن الشكّ في ثقافته، صديقا لكل الرجال وموضعا لاهتمامهم. في المساء، بعد العمل، يتحدّث إلى أهل القرية موضّحا لهم حقوقهم وسلطتهم وامتيازاتهم والحدود التي يتعيّن على النساء عدم تخطّيها في المستقبل. كلّ ذلك أتى أكله في مدة وجيزة: لقد طرأ تغيير على بعض ضعاف الشخصيّة فصاروا ينشرون الرعب حولهم بسكاكينهم ومقاليعهم.

وقد شعرت نساء شابات مثل ثريّا وفيروزة وكوكب بالخوف ولازَمْنَ بيوتهنّ، إلى أن أمسك مشهدي إبراهيم بزمام الأمور مجدّدا. ولكنّ الخطر ظل مستمرا نظرا إلى وجود رجال عاطلين وغضوبين وَجدوا في إسلام جديدٍ وطهرانيّ العنصرَ الذي يعطي معنى لحياتهم البائسة.

وكان الشيخ حسن يتجوّل في شارع القرية الوحيد مثل مسيح جاء ينشر الكلمة الطيّبة، و لكنّه سرعان ما أدرك أنّ زهرة ستكون له خصما خطيرا. ولم تسمح له العجوز بالدخول إلى بيتها ولو مرّة واحدة، وكانت الأحاديث القليلة التي تبادلاها تقتصر على عبارات مثل «إن شاء الله» أو «بحول الله» أو «الحمد لله».

وسرعان ما أحسّت المرأة السبعينيّة بالخطر المحدق. وكانت تعرف أنّ حسَنًا قد عرض على ثريّا أمورا قابلتها بالرفض، كما كانت على علم بأنّ غربان علي يقيم علاقة مع امرأة أخرى في المدينة وأنّه سيفعل ما في

Twitter: @ketab_n

وسعه لكي يُطلّق زوجته دون أن يُرجع لها مهرها.

-ثريّا، ما دمنا الآن فيما بيننا قولي لي الحقيقة. هل حدث شيء بينك وبين هاشم؟

رفعت ثريّا عينيها نحو عمّتها، وبنظرتها البريئة المعهودة عندما لا تفهم شيئا أو تخشى أمرا، قالت:

-عمّتي زهرة، كيف يمكن لك أن تطرحي عليّ مثل هذا السؤال؟

- إنّي أطرحه عليك لأني أريد جوابا.

-أنا لم أفعل شيئا أبدا مع هاشم أو مع غيره يا عمّتي. وأنت تعلمين والكل يعلم ذلك. بل إني لم أفكر أبدا في ذلك لأن التربية التي تلقيتها من أبي وأمي لا تسمح لي بأن أفكّر في أشياء مماثلة. إنّي شريفة وسأظل كذلك إلى الأبد.

كانت زهرة تعرف أنّ ابنة أخيها تقول الحقيقة، بل وكانت تعرف ذلك حتّى قبل أن تجيب عن سؤالها.

-لقد أردت فقط أن أسمع ذلك منك. وأعرف أنّك تقولين الحقيقة وأنّ ما يروج عنك ليس سوى شائعات فظيعة.

وضعت العجوز يدها على رأس البُنيّة و باركتها:

-حماك الله يا بنيّتي، لقد جنّ الرجال، وما عادوا يدركون ما يفعلون.

وتناهت إلى مسامعها ضجّة. كان أحدهم يطرق الباب. وعندما فتحته، تعرفت على بعض نساء القرية، يرتدين براقعهنّ السوداء. وكانت بينهنّ سكينة زوجة مسعود الحلاّق، ورببابة زوجة كريم الذي يجزّ الخرفان.

-لقد طلب منا إبراهيم أن نبقى في بيتك. إنّه سيجمع الرجال. وسوف يتناقشون.

لم تقل زهرة شيئا، فقد كانت تعرف ما معنى ذلك: لقد استدعى العمدة رجال مجلسه لاتّخاذ قرار. واكتفت بسؤال واحد:

Twitter: @ketab_n

-من معه؟

-هناك السيد لاجيفردي، والسيد رمضاني وغربان علي وابناه الكبيران. وهناك أيضا مساعدا العمدة: شكر الله ومحمد، وكذلك بابا خوري العجوز الضرير الذي ينام قرب النهر. أظنّهم هؤلاء فقط.

ستقوم العدالة الإسلاميّة بدورها ولن يقدر شيء على إيقافها. ولن يُسمح لأيّ شيء بأن يعرقلها، ولو كان ذلك شخصا متأكدا من براءة ثريّا.

كان يصعب على زهرة في تلك اللّحظة أن تتخيّل أنهّ لم يتبقّ في حياة ابنة أخيها سوى ساعات قليلة. ومهما رجعت بذاكرتها إلى الوراء، فإنّ قرارات «الكدخدا» لم تتعدّ أبدا غرامة مالية، أو حكما شكليّا أو هبة لفائدة المجموعة.

□ □ □

بدأت تتردّد أقاويل لم يتمكّن أحد من التصدّي لها. وكان رسل يطرقون باب زهرة ويتحدّثون عن قرار خطير، وعن عقاب لا مثيل له. واحتشد رجال أمام المنزل الواطئ الذي يمثّل مقر المحافظة. وكان كلّ يدلي بتعليقه حتى هجر الناس السوق والدكاكين واحتشد الجميع في الساحة للنقاش.

وأرسلت زهرة خانم إحدى النساء لكي تختلط بالحشد. وعندما عادت المرأة همست لزهرة أنّ الناس يطالبون بعقوبة الموت. وسارعت العجوز بإبعاد المتّهمة عن النساء الأخريات، واختلت بها في غرفة نومها. ولم يكن أمامها سوى القليل من الوقت لكي تصارحها بما يدبّر وبإمكانية أن تكون العقوبة قاسية. ولم تقل زهرة أبدا بعد ذلك كيف كانت ردّة فعل ثريّا وما جرى في الحجرة قبل أن يأتي «الكدخدا» بنفسه لإعلان قرار المحكمة. كلّ ما قالته هو إن الفتاة بدت هادئة ولم تحاول تبرئة نفسها على الإطلاق.

Twitter: @ketab_n

-كنت أعرف أنّها بريئة من التّهمة الموجّهة إليها. ولم تكن في حاجة لأن تقول لي ذلك. فالكلّ هنا يعرف ذلك، ولكن لم يكن شيء يستطيع إيقاف هذه الآلة الجهنمية التي أطلقها الرجال.

وعندما سألت زهرة لماذا أعطت للفتاة أجمل فستان أبيض عندها، وهو فستان احتفظت به بعناية منذ عشرات السنين، قالت أيضا:

-في ذلك الصباح ارتدت ثريّا ثيابا متواضعة لتذهب للتسوّق. ولما كنت واثقة من أنهم لن يسمحوا لها أبدا بالعودة إلى منزلها بعد إصدار الحكم، فقد أردت أن تمثل أمام جلاديها على نحو يليق بها. وقد كان هذا الفستان ملكا لي، وكنت أحتفظ به لمناسبة استثنائية. ولم يلبسه أحد غيري، ولا حتى بناتي بمناسبة زواجهنّ. فاعترفوا أنّ هذه المناسبة كانت استثنائية.

شرعت النسوة ذوات البراقع السوداء في الصلاة والبكاء. لقد كنّ يلتقين في كلّ المآتم وتعوّدن على الترتيل معا.

كان غضب الرجال يزداد مع مرور الوقت. وسمعت صيحات عدائية من جديد في بداية الظهيرة: «ابنة كلبة»، «فاجرة»، «امرأة ساقطة».

وبعد ذلك بقليل، كان يُسمع: «إلى الموت» و«الرجم». وألقيت بعض الأحجار في اتّجاه منزل زهرة، ثمّ خيّم الصمت. وقد دام بضع لحظات، ثمّ طرق أحدهم الباب. فذهبت إحدى النساء وفتحته. كانت مريم زوجة سعيد الأبّار وإكرام زوجة مهدي الجزار واقفتين على عتبة المنزل:

-لقد انتهى الرجال.

وعادتا من حيث جاءتا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 5 -

انفتح الباب الخشبي.

صدرت عن الحشد همهمة طويلة. وتصاعدت صيحات عدائيّة غطّى عليها تصفيق جماعيّ. كان جميع سكان «كوبابيه» تقريبا قد احتشدوا تلقائيا، تاركين منازلهم ودكاكينهم وأتوا ليستطلعوا الأخبار.

منذ ساعة، ما انفكّ القرويون يعلّقون على أحداث الصباح تحت شمس حارقة.

ظهر «الكدخدا». وتبعه الشيخ حسن ورجل آخر قصير القامة ومحنيّ الظهر يستند إلى عكّاز وتحيط بوجهه المليء بالتجاعيد لحية بيضاء كثيفة سيئة الحلاقة.

في أسفل مدرج البهو، استدار إبراهيم وحسن باحترام ناحيته...

قال الشيخ بصوت مرتجف قليلا:

«محكوم!»

ودوّت صيحة عظيمة، بل وسمع صوت طلق ناريّ. وعوت كلاب فزعة من كثرة الضجيج. وارتفعت أياد من فرط الحماس، فيما راح رجال في الشارع يصفقون.

«مذنبة... إنها مذنبة...!»

ازداد الصياح بينما كان الشيخ ينزل الدرجات التي تفصله عن العمدة و الملاّ بمشقة. وساعدوه على النزول بينما أفسح له الجمهور الطريق. وكان مرتضى قد أعلن إدانته التهمة الموجّهة لابنته ثريّا في تلك اللّحظة.

خيّم الصّمت من جديد. وكان شخص رابع قد ظهر وهو غربان علي.

Twitter: @ketab_n

ورفع غربان علي يده اليمنى ببطء منتظرا الصمت، ثم قال بصوت خفيض وهادئ:

-الرّجم!

عمّت الهستيريا بين الناس، وسُمعت شتائم، فيما راح البعض يرقص. وصاح الرجل بدوره كما لو أن الجنون الجماعيّ قد انتقل إليه:

-الرجم!... الرجم!

كان غربان علي في تلك اللحظة قد أصدر حكما بالرجم ضد زوجته. وكان يبدو مشرق المحيّا. وحين نزل ببطء الدرجات الثلاث التي تفصله عن الحضور كان يبدو مبتهجا وترتسم على ثغره ابتسامة. وربّت رجال على كتفيه بحرارة و مودّة، في حين قبّله آخرون، وتعلّق أطفال بقميصه، ثم امتدت إليه أياد ورفعته عن الأرض.

لقد صار في الإمكان بدء الاحتفال والشروع في الطقوس.

لم يعر أحد أدنى انتباه للرجال الآخرين الذين خرجوا من المنزل المشيد بالآجر الأحمر: ابني غربان علي الكبيرين، وهما فظّان ومستهتران أحدهما في السابعة عشرة من عمره والآخر في الثامنة عشرة، ومساعدي العمدة والضرير الذي ساعدوه على تبيّن طريقه عبر الحشد الهائج.

-الرجم!... الرجم!... الرجم!

سار الموكب الغريب عبر شارع القرية، ثم توقّف قرب النافورة. وكانت الشمس حارقة والجوّ يرشح بروائح العرق والغبار ومشاعر الحقد.

توقّف رجال مشعثون ونساء يرتدين براقع سوداء وأطفال هائجون حول الرجال التسعة الذين انتهوا للتو من إصدار حكمهم.

ودعا مشهدي إبراهيم مجدّدا إلى مُلازمة الصمت. وكان الهواء خانقا من شدّة الحرّ.

-اسكتوا، أرجوكم!

وكان على «الكدخدا» أن يهدّئ الحشد ثلاث مرات.

Twitter: @ketab_n

-يا أصدقائي، إنّنا الآن مجتمعون أمام منزل مرتضى رمضاني العزيز علينا، والذي هو أكثر الرجال تعاسة وإحساسا بالمهانة والعزلة على وجه الأرض...

وتصاعدت شتائم من الحشد الغاضب:

-هذا صحيح... هذا صحيح.. لقد صدقت...

وطالب إبراهيم بالصمت مجدّدا:

-أنصتوا إليّ... أرجوكم... أنصتوا إليّ...

وخيّم الصمت من جديد:

-إنّ مرتضى رمضاني صديقنا وجارنا منذ سنوات عديدة. وقد ولد أبوه وجدّه هنا. وولد أولاده وأحفاده هنا. ودفن جميع أفراد عائلته هنا ولم يغادر أيّ منهم قريتنا أبدا...

وتابع الحشد:

-هذا صحيح... هذا صحيح...

ورفع مشهدي إبراهيم يده مجدّدا:

-لقد دُنّس شرف صديقنا مرتضى بشكل فاحش.

وتابع العمدة:

-وليس شرفه فقط هو الذي دُنّس بشكل فاحشٍ، وإنّما أيضا شرف قريتنا وعائلاتنا...

وصاحت القرية بأسرها:

-هذا صحيح... هذا صحيح...

ثم هدأ الحشد.

-وثمّة أدهى من ذلك. إن شرف مرتضى رمضاني لا يخصّه إلاّ هو وأهله. وشرف قريتنا لا يخصّنا سوى نحن، ونحن قادرون على استرداده. لكنّي أقول لكم إنّه ثمة ما هو أسوأ: إنّه شرف الله الذي أهدر ومعه شرف الإمام!

Twitter: @ketab_n

كان مائتان وخمسون شخصا يزعقون، ونساء يبكين ورجال يسبّون ويلعنون وأطفال يضربون على صدورهم علامة على التكفير. وكانت الصيحات العدائية تختلط بالأنين.

-يجب أن تُقتل هذه المومس... الموت لها... الموت لها!

وطالب مشهدي إبراهيم بالصّمت مجدّدا. وكان عليه أن يتوقف عن الكلام مرّات عديدة من شدّة استشاطة النفوس.

-نعلم جميعنا أنّ مرتضى رمضاني وعائلته قد عاشوا في هذا المنزل. لقد ولد مرتضى في هذا المنزل منذ زمن بعيد جدّا، وكبر فيه بين أهله على الشرف و تقوى الله...

وقاطعه الحشد:

-الحمد لله، الرّحمان الرّحيم!

-وأمام هذا المنزل الذي نحترمه جميعنا كثيرا، سنتلو عليكم الحكم الذي أصدرناه والذي سيردّ لمرتضى وأهله شرفهم.

- الحكم... الحكم.. الحكم...

تحوّلت النظرات إلى نظرات حقد، وارتفعت بعض القبضات. وكانت النساء متواريات تحت براقعهنّ، كما لو أنّ العار الجماعيّ قد انصبّ عليهنّ فجأة.

-الموت لها... الموت لها... في الحال...

وصمت الجمهور امتثالا لرغبة إبراهيم:

-أصدقائي، إنيّ أفهمكم، ولكن ينبغي أن تتمّ الأمور طبقا لقوانين هذه البلاد وللقوانين التي سنّها إمامنا المبجّل.

وكان الناس يصيحون وقد فقدوا السيطرة على أنفسهم:

-إنّه على حق... إنّه على حق ...

وتابع الحشد:

-يجب أن تموت.. الموت لها في الحال

Twitter: @ketab_n

لم يعد مشهدي إبراهيم قادرا على تهدئة أهل قريته. كان يعرفهم واحدا واحدا، وفيما كان ينظر لهذه الوجوه التي شوّهها الانفعال كاد لا يتعرّف على أهل القرية الذين استفاقوا مبكّرا في ذلك الصباح بسبب السوق الأسبوعيّة. وكان مهدي الجزّار، وهو ابن عمّ زوجة مشهدي، يقف في مواجهته على مسافة أقل من متر، خارجا عن طوره رغم أنّه في العادة شخص رقيق ومحبّ للمزاح. وكان رسول النجّار بجانبه يشوّر ويصيح قائلا إنّه يجب إعدام المذنبة حالا، لأنّ لديه أعمالا عليه أن ينتهي منها قبل حلول الليل.

-أصدقائي، أنصتوا إليّ بحق اللّه العليّ القدير...

غير أنّ الصّياح عاد من جديد، أعنف وأكثر تهديدا.

-يا أبنائي... يا أبنائي...

وعاد الهدوء أخيرا. وكان العمدة يعلم أنّه ينبغي عليه أن يسرع لأنّ بعض المحرّضين قد يقودون الحشد في أيّ لحظة نحو المنزل الذي توجد فيه ثريّا التي لا يتولّى حراستها إلا بعض النساء المسنّات العاكفات على الصلاة.

-أنصتوا إليّ، أرجوكم، أنصتوا إليّ...

كان مشهدي إبراهيم قد أخرج من علبة قديمة نظّارات مستديرة ذات ذراعين ليّنين شدّ إحداهما بضمّادات. مسح بظهر يده اليمنى جبينه مجففا العرق. بينما كانت يده الأخرى ترتعش قليلا.

-سأتلو...

هدأت النفوس، وصار الصمت شاملا. استقام الشيخ حسن ومرتضى رمضاني اللّذان كانا بجانبه في وقفتهما. وكان غبار نتن أصفر اللون يتطاير في الهواء. وسكنت الريح تماما، ومعها نسمات الهواء القادمة من الجبل، وحتّى زخّات ماء النافورة كانت تبدو وكأنها قد توقّفت.

-بسم اللّه الرحمٰن الرحيم...

Twitter: @ketab_n

وحينئذ تابع أهل القرية بصوت واحد:

-الحمد لك يا الله، يا ذا القدرة والإنصاف، الحمد لك.

-اليوم، السادس من مرداد سنة 1365 هجرية[1] اجتمع مجلس «كوباييه» البلديّ مكتمل الأعضاء برئاستي وبحضور مساعديّ شكر الله جليلي ومحمد غرباني.

-لقد دامت الجلسة أربعين دقيقة، واتُّخذ القرار بالإجماع. واستطاع كلّ عضو في المجلس أن يدلي بوجهة نظره. لم يحاول أحد الدفاع عن المتّهمة. وقد قرّرنا جميعنا أنّ المذنبة ثريّا المنوتشهري...

-اللعنة على اسمها! اللعنة على اسمها !

تتابعت الصيحات، وبدأ الناس يتدافعون بشدّة فيما شرعت بعض النّسوة في النواح وراح بعض الأطفال يتصايحون.

-لا تنطقوا هذا الاسم القذر أبدا... الموت للمومس! لِنَنْتهِ من الأمر في الحال

وأصاب حجر رمته يد مجهولة الشيخ مرتضى رمضاني في صدره، فسقط الرجل ببطء وخيّم الصمت مجدّدا.

-من تجرّأ على ضرب هذا الرجل؟ اعترفوا! من ألقى هذا الحجر؟

كان الجمهور قد خفض رأسه من الخجل. وأسند العجوز إلى النافورة فيما أحضرت له إحدى الجارات وسادة لكي يستطيع إسناد رأسه إلى حافتها.

وهمس الشيخ:

-لا أهميّة لذلك، لا أهمية لذلك. أحسّ بألم بسيط هنا، على اليمين... لا أهمية لذلك... واصلوا... لا تهتمّوا بأمري...

وقام العمدة ببطء بعد أن كان جاثيا على ركبتيه قرب الرجل الجريح، وتابع وهو يشير بإصبعه إلى أهل القرية الذين صاروا هادئين:

(1) هذا التاريخ يوافق 15 أوت 1986

Twitter: @ketab_n

-لقد جرحتم صديقنا مرّة ثانية في ظرف ساعات قليلة. ولن يسامحكم الله على ذلك أبدا. بعد أن أهانته ابنته، ها أنّكم ضربتموه مجدّدا في هذه الظهيرة. فماذا فعل لكي يستحق منكم هذا المصير، وهو الرجل الطيّب العادل الذي كان باب بيته مفتوحا لنا دائما؟

في هذه اللحظة تدخّل الشيخ حسن للمرّة الأولى. وكان قد لازم الصمت إلى حد ذلك الحين، مكتفيا بالاستماع إلى العمدة وإلى صياح أهل قريته. ووجّه سبّابته نحو الحشد مشيرا إلى جماعة مضطربة بشكل خاص:

-أنت، هناك... أجل، أنت، يا من ترتدي قميصا أسود.. تقدّم!

وتنحّت الجماعة.

-تقدّم... بسرعة!

واقترب مراهق عمرُه يناهز الخامسة عشرة بخطى بطيئة من الملاّ الذي ما انفكّ يشير بيده في اتّجاهه.

-ألست ابن يد الله الراعي؟

وتردد الفتى في الإجابة:

-أجب، هل أنت ابن يد الله الراعي؟

قال الفتى بصوت هامس وهو يخفض رأسه أكثر:

- أجل.

- إذن لماذا رشقت مرتضى رمضاني بهذا الحجر؟

وبعد لحظة من التردّد أجاب الصبي:

-لست أنا... أقسم لك، لست أنا.

وقبل أن يتمكّن من إتمام جملته، هوت يد رجل الدين التي تحمل خاتما على خدّه بعنف. وسقط الفتى إلى الخلف وهوى على التراب، فأوقفوه. وكان خيط رقيق من الدم يسيل من فمه.

-أنت لست غليظ القلب فحسب، وإنّما كذّاب أيضا. إنّي أخجل في

Twitter: @ketab_n

مكانك وأخجل في مكان عائلتك. من حسن الحظ أنّ أباك ليس هنا في هذه اللّحظة وأنه يرعى قطيعه في الجبل، فأنا على يقين من أنّه كان سيضربك بشكل أعنف ممّا فعلت...

ثم تابع الملاّ وقد هدأ بعض الشيء:

-لماذا ألقيت بهذا الحجر؟

- لست أنا... لم أكن الوحيد... فعلي ورحيم أيضا قد ألقيا أحجارا... لست أنا...

وهوت صفعة أخرى لا تقلّ عنفا على الطفل، فانفجرت شفته.

-الرحمة... الرّحمة... لا تضربني! نعم، أنا من رمى الحجر... فاعف عنّي.

وجُرجر الصبي خارج الحشد ثم ألقي على كومة من الزبالة يحوم حولها جيش من الذباب.

تابع العمدة الذي لم يصدر عنه أيّ اعتراض قراءته:

-لقد قرّرنا بالإجماع أن ترجم المذنبة ثريّا منوتشهري حتى الموت قبل حلول الظلام...

وتعالت صيحات العداء و تعابير الفرح بعنف أكبر.

-الموت للقحبة... الموت للمومس...

وطالب مشهدي إبراهيم مجدّدا بالصمت.

-لا جدوى من الصياح. سيتمّ كلّ شيء بشكل قانونيّ كما يبيح لنا القرآن ومثلما يفرض علينا القانون... وإنّ الله العليّ القدير يأمرنا بأن نطبّق العدالة بأنفسنا لأنّ هذه المرأة قد دنّستنا كلّنا ولأنّ عائلتها تطلب القصاص...

- القصاص... القصاص... إنّ الله يأمر بالعدالة والقصاص...!

- أصدقائي أنصتوا إليّ أرجوكم، أنصتوا إليّ: ستتمكّنون من القصاص الواحد تلو الآخر عندما يحين الوقت. و لكنّي أكرّر أنّ كلّ شيء

Twitter: @ketab_n

سيتمّ طبقا لمشيئة الله ولإرادة إمامنا المبجّل...

صاحت الجماعة:

- أطال الله عمره!

نزع إبراهيم نظّاراته، وأرجعها إلى علبتها بعناية ثمّ تابع:

-لم تشهد قريتنا رجما أبدا. لقد عاش الجميع فيها دائما حياة شريفة. لكنّي أعرف أنّ امرأة قد رجمت السنة الماضية في «خاجه أصغر» على مسافة غير بعيدة من هنا وأخرى في السنة التي سبقتها في «شهري بابك». وقد وصف لي أحد أصدقائي من كرمان كيف حدث ذلك. ونحن سنفعل الشيء نفسه...

وصاح رجل يقف في الصف الأوّل:

- في الحال.

وأضاف آخر:

- إنّه على حق، في الحال.

- ستتمّ المراسم في الساحة، في الأسفل، وذلك بعد ساعة، حتى يتسنّى للجميع الحضور. وفي انتظار ذلك عليّ أن أذهب لتلاوة نصّ الحكم على ثريّا...

وصاح أعور كان يمسك حجرا بيده:

- لا حاجة لذلك، سنذهب لإحضارها الآن. فليس لدينا وقت نضيّعه...أنا مستعد، وسأرمي بنفسي الحجر الأوّل، وسيكون حجر واحد كافيا، فأنا أقتل الأرانب بهذه الطريقة، من أوّل وهلة!

- سنفعل كما قلتُ منذ قليل، ومثلما يطلب منّا الله، ويبيح لنا إمامنا المبجّل ويتمنى مرتضى. والآن عودوا إلى بيوتكم بهدوء. بعد ساعة، ستُقتاد ثريّا إلى الساحة. والآن ارجعوا إلى أعمالكم، لا أريد أن أرى أحدا. وبعد ساعة سآمر بدقّ الجرس. وإذّاك فقط، ستأتون. وليس قبل ذلك.

Twitter: @ketab_n

تفرّق الحشد ببطء، وعادت النساء إلى بيوتهنّ والرجال إلى حوانيتهم وراح الأطفال يلعبون في الحقل المجاور.

كان مشهدي إبراهيم والشيخ حسن قد كُلّفا بمهمة تبليغ ثريّا أنّه لم يتبقّ في حياتها سوى وقت قليل. وكانت كلّ القرية تعلم ذلك، باستثناء ثريّا والنساء اللّواتي يحرسنها.

إنّها المرّة الأولى في تاريخ القرية التي ينفّذ فيها العمدة مهمّة مماثلة. وكان ذلك يُشعره بالفخر، ولكن أيضا بالقلق. كان يعلم، منذ انتصرت الثورة في بلده، أنّ المحاكم قد حكمت على آلاف الأشخاص بالإعدام. لقد كان يستمع إلى الإذاعة الرسميّة مرّتين في اليوم وكان يسمع أسماء المحكوم عليهم الذين أهانوا الله والإمام. وكان يعرف أنّ المحاكم الثوريّة في كرمان لم تتوقّف عن العمل منذ عشر سنوات. غير أنه لم يصوّت أبدا لصالح حكم بالموت. ولم ينظّم أبدا حكما بالإعدام.

Twitter: @ketab_n

- 6 -

مرّت ساعة على خروج الرجال من مقرّ المحافظة لتلاوة نصّ الحكم.

كان كل شيء ساكنا في الخارج. بدأت الشمس تغرب، وهبّت نسمة خفيفة على الغرفة التي خرج منها للتوّ إبراهيم وحسن.

في الغرفة المجاورة، شرعت النائحات في العويل مجدّدا، وكان يتخلّل ذلك آيات قرآنية.

انحنت زهرة على المحكوم عليها وهمست لها:

-يا ثريّتي العذبة، سأظل بجانبك حتّى النهاية، وستجدين لديّ الحظوة والمودّة. ولكن ما عساي أفعل غير ذلك؟ إنّه قانون الرّجال، القانون الذي يسنّه الرجال ويقولون إنّه قانون الله. لقد اتّهموك بذنب لم تقترفيه. وأدانوك رغم أنّك بريئة ولكن لا يمكن لأحد أن يثبت براءتك، لا أنا ولا أنت، ولا النساء الطيّبات اللّواتي في الغرفة المجاورة.

وأدركت ثريّا فجأة كم كان الصمت الذي فرضته على نفسها منذ أشهر في غير صالحها. و فجأة خالجتها رغبة عنيفة في أن تفصح عن نفسها وتشرح موقفها، وتصيح بأنّها بريئة. ولكنّها كانت تعرف أنّه قد فات الأوان وأنه لن يصدّقها أحد من أولئك الذين أدانوها. وفي المقابل، كان يصعب عليها أن تتصوّر أن هذه المكيدة الخسيسة قد تودي بحياتها.

وكانت ثريّا تستطيع أن تبوح لزهرة التي كانت بجانبها بكل شيء.

-عمتي زهرة، إنّ الموت لا يخيفني. فأنا ميتة بالفعل منذ زمن طويل، منذ ماتت أمّي، ومنذ أهانني غربان علي، وضربني، وهجرني في سبيل نساء أخريات.

وقاطعت زفرة جملتها. وتهاوت على الأرض، شبه مغمى عليها. فجثت

Twitter: @ketab_n

زهرة قربها، وحضنت رأسها بين ذراعيها، وقبّلت جبينها:

-يا بنيتي... يا بنيتي الصغيرة... ابكي... ابكي بلا خجل. فلا يوجد أحد هنا ليراك أو يسمعك... اتركي نفسك على سجيّتها، ابكي...

وفي الغرفة المجاورة، تابعت جوقة النساء النواح بقوّة أكبر.

-يا الله، يا قدير... يا محمد... يا ربنا المعبود... يا رسولنا وشفيعنا...

-عمتي زهرة، أنا لا أريد أن أتتركك، ولا أريد أن أترك أطفالي، إن صغيرتي «خوجسته» لم تبلغ السابعة من عمرها بعد... لا أريد أن أترك حياتي هذه، غير أنّي لا أشعر بالخوف، فأنا أعرف أنّى سألقى أمي العزيزة التي اشتاق إليها كثيرا. عمتي زهرة، اعتني بأطفالي، وخصوصا الصغيرة، فهي هشة جدّا...

راحت ثريّا تنتحب من جديد، وكانت تصدر عنها من حين لآخر كلمات مبهمة:

-عمتي زهرة، عديني أن تخبريها في أحد الأيام، عندما تكبر، من كنت وما فعلوا بي، حتى لا تشعر أبدا بالعار من أمّها. عديني بذلك...

وأجابت العجوز وقد تأثرت هي أيضا:

-يا بنيّتي العزيزة، سيعيش أطفالك قربي، وخصوصا أصغرهم. ولن يحتاجوا أبدا إلى أيّ شيء. سيكونون أبنائي ولن يستطيع أحد أن يأخذهم مني أبدا وليشهد الله على ذلك: سيكون بيتي بيتهم.

وفيما كانت زهرة تقول هذه الكلمات، كانت تعرف أنّ وعدها لا يتضمّن ابني ثريّا الأكبرين. كانا يعيشان تحت ظلّ والدهما، وبمباركة منه كانا يتعاطيان التجارة غير المشروعة وعمليات التحيّل بجميع أنواعها.

كان حسين علي، الابن البكر، نسخة مطابقة لأبيه. فقد كان له وجه مربع وعينان غائرتان مثله. وكان بعض الزغب قد نبت على ذقنه وشاربيه، وله رقبة مدهشة بالنسبة إلى صبي في سنّه. لقد تردّد على المدرسة طيلة ثلاث سنوات وتميّز بكثرة غياباته وتمرّده.

Twitter: @ketab_n

وسرعان ما صار معروفا بتحطيمه للزجاج، وممارسته لعمليات نشل صغيرة، وسرقته للدجاج والأرانب التي يذبحها ويشويها في ركن من الجبل، ومشاجراته مع صبية في عمره.

في البداية، وبّخه أبوه، وضربه ضربا مازال يحمل منه إلى اليوم ندبة بشعة تحت أذنه اليمنى. غير أنه بقدر ما كان يُضرب، كان يكرر جرمه. كان خشنا وشرسا وعنيفا، ويقسّم وقته بين الحقول والإسطبلات والغابة المجاورة والمنزل العائلي حيث يأتي للأكل والنوم.

وكان حسن علي، الذي يصغره بعامين، عكسه تماما. ملامحه أرق، ووجنته أقل نتوءا، ولونه أفتح. كان تلميذا جيدا، ويتصرّف بلطف وتحبّب ومودّة. وكان في الخدمة دائما، فهو يساعد أمه والجيران في حمل الأثقال، وملء الدِلاء من الآبار والرجوع بالمواشي وحلبها.

ولكن عندما أُغلق الفصل الوحيد الذي في القرية، استسلم لهوى نفسه ولحيل أخيه الأكبر الشريرة.

لم يكن يسرق، غير أنّه كان يشارك سلبيّا في العمليّات التي يقوم بها أخوه، وتواطأ معه بصمته وبالتسلية التي يجدها في ذلك.

وعندما دُعيا لمساندة أبيهما في محاكمة أمّهما، وجدا الأمر طبيعيّا ورفعا أيديهما مرّتين، حين توجّبت إدانتها...

كانت زهرة خانم جالسة بجانب ابنة أخيها تصلّي بصوت منخفض، وقد أحنت ظهرها ورأسها قليلا، تحرّك شفتيها ولكن لا يكاد يسمع لها صوت. وكانت تحدّق بعينيها المفتوحتين في ثريّا، فارتعبت فجأة من شدّة شحوبها. وانقطعت عن صلاتها، وانتصبت في جلستها وقالت:

-ثريّا... ثريّا... هل تسمعينني؟

كانت المرأة المحكوم عليها تلازم الصمت، كأنها غائبة.

-ثريّا... يا بنيتي... هل تسمعينني؟

كانت الفتاة تنظر إليها بلا انفعال، غائبة.

Twitter: @ketab_n

مدّت زهرة يدها ووضعتها على كتف ابنة أخيها.

-أجيبيني... هل تسمعينني؟

حينئذ فقط، خفضت الفتاة عينيها وسالت دمعتان على وجنتيها.

ضمّت زهرة ثريّا بين ذراعيها، بالرغم من تقاليد القرية التي تمنع لمس الأشخاص المحكوم عليهم مهما كان نوع الحكم.

-عمّتي زهرة، لقد رأيت أمّي. كانت جالسة تحت شجرة وفتحت لي ذراعيها، وابتسمت وقالت: «أخيرا يا بنيّتي، ها أنت أخيرا، لقد مرّ زمن طويل جدا.

صار النواح أعنف ثم توقفت النائحات لحظة عن العويل.

وسُمع طرق على زجاج نافذة المنزل، ثمّ سُمع طرق آخر. وسُمع صوت:

-زهرة خانم، حان الوقت. لقد طلب منّي مشهدي إبراهيم أن أعلمكنّ... يجب الذهاب...

كانت زهرة أوّل من وقف، ثم ساعدت ابنة أخيها على القيام. وخلفها، كانت خمسة ظلال في زيّ أسود تنتظر على عتبة الغرفة، مواصلة الصلاة بصوت منخفض. وطرق أحدهم الباب مجدّدا بقوة أشدّ.

-زهرة خانم، هل تسمعينني...؟ حان وقت المجيء... إنّ القوم في انتظاركنّ...

أخذت كبيرة القرية يد ابنة أخيها واتجّهتا معا نحو الباب؟ وكانت النساء الأخريات يتبعنهنّ. ونظرت زهرة وثريّا لبعضهما.

همست لها زهرة وهي تفتح مصراع الباب:

-تشجعي يا بنيتي، أنت بريئة والله يعلم ذلك... الله يعلم ...

وفتحت الباب بحذر.

لفحت نفحة هواء ملتهبة وجهها، كان النور يُبهر العيون والصمتُ شاملاً. وكانت زهرة أوّل من ظهر على عتبة المنزل، مرتدية «تشادورا» على رأسها ووجهها مكشوف. وكانت تجاعيدها وبشرتها التي لوّحتها

Twitter: @ketab_n

الشمس تجعلانها تبدو مثل ساحرة. كانت تثير الرعب وتفرض الاحترام.

كانت خمسمائة عين تحدّق بها.

فجأة عمّت الهستيريا والهرج والمرج والصياح. وارتفعت قبضات. وظهرت ثريّا للتوّ خلف زهرة، مرتدية «تشادورها» الذي أخفى وجهها كليّا. كانت الأطياف السبعة تقف ساكنة في رطوبة ظهيرة الصيف هذه. ستة وجوه مكشوفة ووجه مبرقع يترقّبون، مسمّرين، أن يقرر مشهدي إبراهيم، رئيس تشريفات هذا اليوم الاستثنائي، بقية الأحداث.

وفي لحظة توقف الصياح. وبدأ العمدة في الكلام، وقد صعد على كرسي:

-لقد حان الوقت... يجب أن ينفّذ الحكم!

و سرت في الحشد همهمة، وزعق صوت أقوى من الأصوات الأخرى:

-في الحال...في الحال...

وأجاب آخر مثل الصدى:

-أجل، في الحال...!

وآخر:

-إنه على حق... لقد استغرق الأمر زمنا طويلا... لِنَنتهِ بسرعة...!

ورفع إبراهيم يده وانتظر أن يخيّم الهدوء:

-لقد مرّ علينا يوم قاس مازال لم ينته بعد. وسننفّذ كل شيء طبقا للقانون. وإنّ السيد لاجيفردي، الذي يقف بجانبي، يصرّ على أن تجري الأمور طبقا لقوانين بلدنا والشريعة الإسلامية.

ثم استدار نحو زهرة خانم وقال لها بتباه:

-قرّبوا المذنبة، من فضلكم.

ترددت العجوز قليلا، ثم استدارت نحو ثريّا وقالت لها بلطف:

-كوني قويّة... وانظري أمامك بشكل مستقيم...وارفعي رأسك لأنك بريئة...

Twitter: @ketab_n

وتقدّمت المرأتان وسط الحشد الذي كان يفسح لهما المجال للمرور، متبوعتين بالنساء الخمس الأخريات. ولم تكن تُسمع أيّ ضجّة.

وانطلقت البصقات الأولى، متبوعة بشتائم وصيحات. ثم انهالت الضربات واللكمات حتى على النائحات. ولم يسلم سوى زهرة خانم.

كانت ثريّا تتقدم بجانب العجوز، وهي ملتصقة بها تماما.

كان إبراهيم يرى كلّ شيء من على كرسيّه و لكنّه لم يتدخّل. لقد كان يعرف أنّه لا جدوى من ذلك. لقد طال انتظار الحشد حتّى صار يحقّ له أن يفعل ما يريد. وفجأة هوت لكمة على عنق زهرة. فوقفت في مكانها، واستقامت في وقفتها وحدّقت في الفاعل:

-... يا ابن العاهرة... خذ، هذه من أجلك!

لقد سدّدت له صفعة رنّانة. فجعل الجمهور يضحك، وخفّ التوتّر لبعض اللحظات. وتوجّه الموكب نحو مركز الساحة.

وفي الخلف، عادت النسوة الخمس لإنشادهنّ ونواحهنّ:

-يا الله يا قدير، اغفر لنا ذنوبا... ويا محمّد، اشفع لنا...

ثم توقف الموكب المشؤوم أمام الكرسيّ. ونزل مشهدي إبراهيم من عليه بمساعدة الشيخ حسن. وتكوّنت حلقة حول النساء والقضاة الإسلاميين. كلّ يريد أن يرى عن كثب ما سيحدث و يريد أن يسمع آخر كلمات الفتاة التي سيتمّ إعدامها بعد أقلّ من نصف ساعة.

وبحركة بطيئة ومفخمة، رجا العمدة من النساء أن يتراجعن حتّى تصبح ثريّا وحيدة في مواجهة جلاديها. وكأن هذا الشخص ذا الشخصية الضعيفة، قد تحوّل في بضع ساعات إلى رجل آخر، فكان يعطي الانطباع بأنه قد استقام في وقفته، ولم يعد في حاجة لعكّاز كي يمشي. أما الشيخ حسن، فقد شعر برغبة في الذهاب إلى الحلاق قبل بداية هذه الطقوس. وكان مرتضى، الأب الذي أهدرت كرامته، هو الوحيد الذي يبدو عليه الإحباط من قذارة ملابسه وفوضاها غير المعهودة.

Twitter: @ketab_n

وتعالى الضجيج مجدّدا بشكل أقوى.

-الموت! الموت!

لم يعارض إبراهيم. فزادت صيحات العداء الجوّ توتّرا: لقد كان ذلك هو الجوّ الأنسب لتنفيذ حكم الموت. إبراهيم كان لا يريد لهذه الحادثة أن تُنسى أبدا، وأن تتردّد أصداء هذا الحكم في الوادي وفي كامل الإقليم. ولِمَ لا في العاصمة؟

وماذا لو علم الإمام بخبر هذا الفعل وبالقربان الذي قدّم على شرفه؟ يا للشرف!

إذن من الأفضل أن يتمّ ذلك حسب الأصول.

-يا ثريّا مانوتشهري، لقد حكمنا عليك بكل عدل وإنصاف واتّخذ القرار. وأنت تعرفينه...

-الموت!... الموت!... الموت...!

-هل سمعت؟ لقد حكمت عليك عدالة بلدنا بالموت...

-في الحال! في الحال... ابتعدوا حتى يتسنّى لنا أن نبدأ أخيرا...

وارتفعت أذرع مسلّحة بصخور وهراوات وبأدوات مختلفة. وبدأ الحشد يتوعّد، وتعالت ضحكات ساخرة وتصفير. وكان العمدة يعلم أنه يتوجّب عليه الإسراع، وإلا فلن يمكنه التحكّم في الأحداث وفي عدوانية بعض الأشخاص المسعورين.

-لقد سبق أن قلت لكم إنّه يتوجّب أن تجري الأمور بشكل قانونيّ، وإنّ السيّد لاجيفردي الحاضر هنا سيراقب تنفيذ الحكم حتى لا يتسنّى لأحد أبدا أن يتّهمنا بمخالفة شريعة الله و إرادة إمامنا المبجّل.

- لنمجّدهما... أطال الله عمر الإمام... وحمى دليلنا...

بدا الهدوء على الحشد. غير أنّ أقلّ كلمة أو حركة في غير محلّها كان من شأنها أن تُهيّجهم وتثير مشاعرهم. وإثر نظرة من العمدة، بدأ الشيخ حسن في الكلام:

Twitter: @ketab_n

-أصدقائي، لقد صرتم تعرفوني جيّدا الآن. أصبحت واحدا منكم. لم يمرّ عليّ زمن طويل وأنا أعيش في هذه القرية الجميلة، و لكنّ الله العليّ القدير أرسلني إليكم، ولن أغادر أبدا «كوباييه»التي تمثّل بالنسبة إليّ جنّة على الأرض...

وتخلّل التصفيق هذه الكلمات. وأدرك حسن أنّ عليه أن يتملّق هؤلاء النّاس الأجلاف والجهلة إذا أراد أن ينتهي هذا الاحتفال بلا مشاكل.

لقد قدم هؤلاء القرويون لهذا الرجم وكأنّهم يحضرون زيارة لآية الله أو لأحد أمراء النظام القديم مثلما كان يحدث في الماضي. كان الأمر عبارة عن تسلية. وعندما تنتهي المسرحيّة سيرجع كلّ واحد إلى أعماله اليوميّة.

ربّما كان العجائز فحسب هم الذين سيُظهرون بعض الشفقة عند تعليقهم على الحدث في المساء.

كان الملاّ يشير إلى ثريّا بإصبع متوعدة:

-إنّ هذه المرأة قد دنّست قريتكم وهذا الرجس يحتاج إلى تكفير. وهذا التكفير أنتم الذين ستحقّقونه بتطبيقكم كلام الله...

- الرجم... الرجم...!

- نعم، يا أصدقائي، أنتم على حقّ، سيكون بإمكانكم محو الإهانة التي لحقت بكم، وذلك عندما ترشقونها بحجركم، الواحد تلو الآخر، كل حسب دوره. وكلّ حجر يُقذف سيرجع لكم جزءًا من كرامتكم، وهكذا إلى أن تكفّر عن ذنوبها كليّا...

- الرجم... الرجم !

تابع الشيخ حسن:

-اذهبوا جميعكم وابحثوا عن أحجار؛ اذهبوا وارجعوا بسرعة... لن نبدأ إلاّ إذا تسلّح الجميع...

وتفرّق عشرات من الأشخاص بسرعة في جميع أنحاء القرية لكي

Twitter: @ketab_n

يبحثوا عن أسلحتهم القاتلة. أُخذ بعضها من قعر النهر، واستُخرجت قطع آجر من جدار متداع، وقُطع قرميد من سقف منهار. بل وشوهدت نصف دستة من الرجال تُهدّم جدارَ منزل صغير بصدد البناء كي لا يرجعوا فارغي الأيدي، وفي أقل من عشر دقائق، انغلقت الدائرة.

كانت زهرة خانم لا تزال واقفة في الصفّ الأوّل صحبة النائحات وغربان علي، الزوج المغبون الذي كان ابناه الكبيران حسين علي وحسن يحيطان به، وعلي ومساعدي إبراهيم الاثنين شكر الله جليلي ومحمد غرباني والشيخ الضرير.

وكانت ثريّا مانوتشهري تقف أمامهم وهي لا تزال محجبة، وقد أدركت أن نهايتها قد حلّت.

كانت تقف صامتة على مسافة أقلّ من متر من«الكدخدا» والملاّ وأبيها.

والآن يمكن للحفل أن يبدأ.

-من منكم بحوزته معول؟و من بحوزته وتد؟

كان مشهدي إبراهيم يبحث بعينيه عن رسول النجار.

و صاح صوت رجاليّ وسط الحشد: «أنا!»

و صاح آخر: «أنا أيضا!»

ثم سُمعت أصوات أخرى.

و أمر العمدة:

-تقدّموا!، قفوا أمامي.

وانضمّت جماعة صغيرة من القرويين إلى الدائرة التي كان عليها أن تتّسع لكي يتمكّن الجميع من أن يأخذوا مكانهم فيها. وكان المتطوّعون يقفون خلف ثريّا مسرورين، وكلّ منهم يحمل أداته في إحدى يديه وحجرا في يده الأخرى. وكان هناك، إضافة إلى رسول، مجيد ومحسن ابنا الجزار، وأصغر ورحمة الله وعلي أكبر وهم أبناء عم لغربان علي.

Twitter: @ketab_n

كانوا دائما يتطوّعون للقيام بالأشغال الكبيرة في القرية، فهم يفرّغون الشاحنات القليلة التي تأتي من المدينة حاملة قوارير الغاز أو براميل النفط أو أكياس الأسمنت أو الأرز الضخمة، و يعيدون بناء الجسر الصغير الذي يعبر الجدول عندما تحطّمه الفيضانات، ويَقْطعون الأشجار، وينقلون الحجارة أو يذبحون الخرفان أيام عيد الأضحى.

-هل تتطوّعون جميعا؟

وأجابوا بصوت واحد: «نعم»

و وقع اختيار إبراهيم على رسول ومعوله.

-تعال، اتبعني... وأنتم، أفسحوا الطريق...

وانفتحت دائرة القرويين مفسحة المجال للـ«كدخدا» والحفارين. وفي الأثناء، كانت المرأة الخائنة تقف ساكنة، مثل تمثال أسود.

وأشار مشهدي إبراهيم بإصبعه إلى موضع في الطرف الآخر من الساحة، حيث تقف حافلة كرمان. كانت الأرض صلبة وصخرية في ذلك المكان، وكانت أعشاب تنبت هنا وهناك وعقارب تنام تحت الشمس.

قال إبراهيم مشيرا إلى رسول: «هنا، احفر هنا».

فبصق النجار في يديه، وحمل معوله ثم نظر إلى الحشد.

صاح رسول عاليا: «يا الله»، ثم ثبّت قدميه، وهوى بفأسه بكلّ ما لديه من قوّة. وأغمد المعول في الأرض عشرين مرّة أو ثلاثين مستعينا باسم الله.

وبعد عشر دقائق صار عمق الجبّ خمسين سنتمترا تقريبا. واستقام رسول في وقفته لبعض الوقت كي يستردّ أنفاسه ويتابع الحفر. أوقفه إبراهيم بحركة من يده.

-حسنا، هذا جيّد، استرح...

ثم استدار نحو ابني الجزار:

-من يريد أن يذهب للجبّ؟

Twitter: @ketab_n

كان محسن أوّل من تقدّم وأخذ المعول من يدي أخيه.

و صاح بدوره:

-يا الله.

اتّسعت الحفرة بسرعة. وكان لونُ الأرض يتغيّر ويصبح أكثر قتامة. وإثر إشارة أخرى من العمدة أعطى محسن مِعْوَله لمجيد الذي راح يحفر بنفس الهمّة. وبعد عشرين دقيقة كان جبّ عمقُه متر تقريبا قد حُفر.

-الآن دورك، يا أصغر، أخرج التراب.

تناول الرجل رفشا. وعندما انتهى، نادى العمدة رسول مجدّدا، ثم الشقيقين. صار عمق الحفرة الآن مترا وعشرين سنتمترا.

سأل مجيد:

-هل هذا يكفي؟

-واصل الحفر، عشرة أو خمسة عشر سنتمترا... وبعد ذلك سيكون كل شيء على ما يرام.

أفرغ أصغر الحفرة برفشه مرّة أخرى. ثم جاء دور رحمة الله وعلي أكبر.

وأخيرا بدا الرضى على مشهدي إبراهيم:

-هذا جيد، ضعوا أدواتكم واتبعوني.

وانضمّ العمدة ومساعدوه مجدّدا إلى حلقة القرويين. وكان الناس المفتونون قد لازموا الصمت. انحدرت الشمس قليلا وهبّت نسمة خفيفة، فتوهّم نساء «كوبابيه» ورجالها أن الطقس بدأ يبرد. حافظ الشيخ حسن على هدوئه أثناء حفر الجبّ. كانت ثريّا تقف في مواجهته، وراحت تنظر إليه متخفّية خلف حجابها الأسود. كانت تتفرّس فيه بازدراء، مذهولة، دون أن تستطيع أن تفهم كيف استطاع محتال مثله أن يدفع بها إلى حافة الموت. منذ أن استقرّ في القرية رغبةً منه في الحصول على منزل «الأرباب»، صارت الفتاة تعرفه جيدا. لقد حاول عديد المرات، مستغلا

Twitter: @ketab_n

سلطته بوصفه ملاّ - دون أن تقتنع ثريّا مرّة واحدة بصدق ادعاءاته الدينية- أن يجتذبها إلى منزله، بعد الظهر في ساعات الفراغ، عندما كان زوجها في المدينة وبقية أهل القرية يعملون في حقولهم. وفي مرات أخرى، كلّما علم بوجودها وحيدة، كان يحاول أن يرغمها على أن تدعوه إلى منزلها، وكان يقول إن ذلك لكي يحدّثها عن الله ودور النساء في الجمهورية الفتيّة... إلى أن دخل إلى منزلها عُنوةً في أحد الأيام، غير أنّ زهرة خانم قد طردته، إثر وصولها بشكل غير متوقّع.

كان الشيخ حسن واقفا، يحمل مصحفا في يده، ويتفرّس فيها أيضا من وراء نظاراته السوداء. إنه لم ينس إهانتها له عندما رفضت عروضه. فقد تجرّأت على تحدّيه وهذه هي نتيجة ما فعلت.

ولكن، ماذا كانت تريد أكثر من ذلك، وهي التي تجاوز عمرها الخامسة والثلاثين -ولا تزال جميلة جدا- وزوجها على وشك أن يهجرها بعد أن أعلن عن نيّة زواجه بفتاة من المدينة؟

لقد ارتكبت حماقة برفضها ولا بد أن ذلك بتأثير من تلك العجوز الساحرة زهرة.

وسرعان ما انتشرت في القرية شائعة تقول إنّ الشيخ حسَنًا قد أساء معاملة الفتاة، وكانت زهرة خانم قد أجّجت هذه الشائعة ببراعة.

في البداية، أصبح أهل القرية يشيرون إلى «الملاّ» بالإصبع، ويتحاشونه. لكن غربان علي قلب الموازين حين روّج أن ثريّا امرأة سيّئة وأنّها أوقعت بالشيخ حسن المسكين لكي تشوّه سمعته. حينئذ صار الناس يزدرون الفتاة ويتحاشونها بنفس السرعة التي رأفوا بحالها وساندوها. وكان الفخّ الذي نصبه الزوج يُطبق ببطء. غير أنّه كان عليه أن يجد أدلّة جديدة عن سلوك ثريّا الشائن... وقد مكّنه موت فيروزة، صديقة زوجته، وترمّل هاشم من فرصة غير منتظرة. كان الزوج و«الملاّ» قد شاركا في ترويج الشائعات التي تؤكّد ميل ثريّا إلى الأرمل. وازدادت

Twitter: @ketab_n

الأقاويل إلى درجة الحكم على الفتاة بشكل لا رجعة فيه...

قعد الشيخ حسن على الكرسي وقال:

-سوف نصلّي، سوف نشكر الله وإمامنا المبجّل.

وعلّقت أصوات:

-إنّه على حقّ...إنّه على حقّ... لِنَدْعُ الله...

بدأ حسن بالكلام، وهو يرفع المصحف الذي يحمل بين يديه قليلا:

-بسم الله الرحمٰن الرحيم...

وتابع الحشد، رجالا ونساء معا:

-بسم الله الرحمٰن الرحيم...

وواصل حسن مرتّلا مع مرؤوسيه في نفس الوقت:

«الحمد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، ولا الضّالين».

ولم تكد الأصوات تهدأ حتى سُمع دويّ محرّك. وفجأة ظهرت في المنعطف الأخير من الجبل عربتان مغبّرتان ومبرقشتان. نظر إبراهيم إلى حسن، ونظر حسن إلى غربان علي الذي نظر إليه بدوره.

من كان هؤلاء الأشخاص؟ من أين أتوا في ساعة كهذه؟

من كلّ سيارة نزل أشخاص ذوو أزياء غريبة: بنطلونات فاقعة الألوان وقمصان شاذّة ووجوه مبدّلة، حاملين لحي حقيقية أو مستعارة، وشعرهم أشعث، يتبعهم قردان، وعنزة وكلب.

-سيداتي سادتي، صباح الخير... نحييكم ويشرفنا، أنا وأصدقائي، أننا قد وصلنا إلى قريتكم الجميلة...

الرجل الذي خطب بكلام منمّق وبدا كزعيم للمجموعة، كان مهرّجا متجوّلا مثل مئات المهرّجين الذين يوجدون في جميع أنحاء البلاد.

-علمنا من المدينة أن اليوم هو يوم سوقكم الأسبوعيّة. حينئذ

Twitter: @ketab_n

قلنا لأنفسنا إننا سنروّح عنكم بعد يوم العمل... اقتربوا، اقتربوا أيها الأطفال، لا تخافوا... انظروا ماذا أحضرنا معنا.

وألقى في الهواء حفنة من النُثار، ثمّ حفنة ثانية، وثالثة، فطارت مثل أضواء صغيرة متلألئة في السماء اللازوردية.

-التقطوا قِطَع الحلوى التي أرميها لكم، الْتقِطُوها

صاح وهو يخاطب الصغار.

وفي لحظات قليلة، ترك عشرون طفلا تقريبا الحشد وارتموا على الكريات الصغيرة التي تحيط بها أوراق ملونة ملقاة في الغبار.

ظلّ القرويون صامتين ومسمّرين في أماكنهم، كان الشيخ حسن معلّقا على كرسيّه، المصحف بين يديه، وإبراهيم ومرتضى على جانبيه، وثريّا أمامه، وزهرة والنائحات خلفه. ولم يكن أحد يتحرّك.

-واصلوا صلاتكم... المعذرة... لم نكن نعلم... لا تهتمّوا بنا... سننزل متاعنا، وعندما تنتهون، تعالوا لرؤيتنا. سيكون هناك ما يكفي الجميع: حلويات، لعب وحيوانات مُدَرَّبة، ألعاب سحرية، وكلّ ما يلزم لتسلية الكبار والصغار... لا تهتموا بنا...

وحلّ بعض الاضطراب بين القرويين ثم تابع مشهدي إبراهيم كلامه مجدّدا:

-لدينا عمل علينا أن ننهيه، ارجعوا كلّكم إلى هنا... وأنتم، أيها الأطفال، هناك، عودوا وستشاهدون هؤلاء السادة فيما بعد عندما ننتهي.

-بعد إذن العمدة، يمكننا أن نبدأ.

أشار مشهدي إبراهيم إلى زهرة ورجاها أن تتقدم. ثم مال عليها وقال لها:

-امسكي المحكوم عليها من ذراعها واتبعيني، وقولي للنساء الأخريات أن يأتين.

ثم تقدّم ببطء، وبجانبه «الملاّ» وأبو الزوجة الخائنة، وتوجّه نحو

Twitter: @ketab_n

الحفرة الواسعة التي حفرت على بعد خمسين مترا، في الجانب الآخر من الساحة، قريبا جدّا من المكان الذي توقّف فيه المهرّجون منذ قليل.

ولم يكن هؤلاء قد لاحظوا بعد أيّ شيء غير عادي، ملاّ يعتلي كرسيا، صلوات جماعية، ولم يُثر الجبّ الذي لا يبعد سوى مسافة قصيرة عن عرباتهم، ريبتَهُم. إنهم يشاهدون أشياء مماثلة أثناء ترحالهم عبر البلاد طولا وعرضا، وهي أشياء غريبة جدّا. لكن لا شك أنهم لم يتوقعوا أبدا ما سيحدث، أن يتقدّم القرويون في اتجاههم حاملين حجارة ورفوشا وهراوات، مرتّلين آيات من القرآن.

واستقام الشخص الذي بدا أنه زعيمهم في وقفته ونادى رفاقه:

-انظروا... انظروا... إنهم يتقدمون نحونا.

مسح الرجل جبينه ودمدم:

-أيها السادة... أيها السادة... ماذا يجري؟ ما تريدون منا... هل تريدون أن نرحل؟ ماذا تريدون؟

كان إبراهيم وحسن ومرتضى يتقدّمون صامتين، وخلفهم مائتان وخمسون شخصا، وجوههم متوعدة. وتوقّف «الكدخدا» على بعد خطوات من المهرجين:

-ارجعوا إلى الخلف... بسرعة... أبعدوا سياراتكم ومتاعكم... لدينا ما نفعل هنا... بسرعة

-في الحال، يا سيدي، في الحال... لكن ماذا يحدث؟...

-سترون ذلك... اذهبوا... يا الله احملوا كلّ شيء، وضعُوا أمْتعتَكُم هناك تحت تلك الأشجار... وإيّاكم أن تتحركوا.

امتثل الزائرون للأوامر. وتراجعت السيّارتان حوالي ثلاثين مترا إلى الخلف، وكذلك الحيوانات والمعدّات.

حينئذ استدار إبراهيم:

-يا زهرة خانم، تعالي إلى هنا مع المذنبة.

Twitter: @ketab_n

ابتعد الحشد ببطء وظهرت النساء يرتدين «تشادورات» سوداء ومن بينهنّ واحدة وجهها محجوب تماما، وعشرات من الرجال مسلّحين بالحجارة والآجر. تراجعوا بضع خطوات إلى الوراء وقد تولاّهم الفزع. لقد رغبوا في الفرار، لكنّ الخوف سمّرهم في مكانهم، بقوا دون أن يختلطوا بالحشد الذي يتكوّن من أهل القرية. كانت زهرة وثريّا على بعد عشر خطوات من الحفرة وأوقفها مشهدي إبراهيم بحركة من يده.

-هذا جيد... الآن، استديرا، وقفا في مواجهتنا حتى يراكم الجميع.

استدارت المرأتان. وفي الصفّ الأوّل من المتظاهرين كان يقف «الملاّ» والأب، والزوج وابناه الكبيران، والمساعدون والشيخ الضرير الذي ما انفكّ يتبع الآخرين حاملا صخرة كانوا قد أعطوها له.

ساد صمت مدهش في الساحة.

-زهرة خانم، اكشفي عن وجه المذنبة.

امتثلت العجوز للأمر ببطء بالغ. تركت ذراع المنكوبة، ووقفت في مواجهتها، ثمّ أزاحت القماش الأسود الذي حجب ثريّا عن أنظار الآخرين.

كانت ثريّا مغمضة العينين، والـ«تشادور» الذي يحيط بوجهها يجعله أكثر شحوبا، وكانت شفتاها متقلصتين وفمها يرتجف دون أن يُلاحَظ ذلك.

تابع الحشد شتائمه:

-قحبة... مومس... فاجرة... ابنة كلبة... لتمت الكلبة... لِتَمُت البغيّ...

وارتفعت أياد مستعدّة لرمي الحجارة والآجر وتوسّط مشهدي إبراهيم بين المرأتين وأهل القرية.

-أصدقائي، لقد حان الوقت...يجب أن يُنفّذ الحُكم، لقد أمرنا الله بذلك...

Twitter: @ketab_n

- يكفي كلاما، صاح صوت مجهول.

- إنّه على حقّ، يكفي كلاما، لنُنْهِ المسألة، مازالت لدينا أعمال، تَابَع آخر.

- لِتَمُت الكلبة، لِتَمُت في الحال»

رفع العمدة يده مجدّدا:

-سيتمّ كلّ شيء مثلما أمر الله. لن يتغيّر شيء، قليلا من الصبر.

أحضر له الكرسي مجدّدا فاعتلاه بمشقّة.

-سيلقي صديقنا المحترم مرتضى رمضاني أوّل حجر وإذا اخطأ الهدف، سيُمنَح حجرا ثانيا، إلى أن يصيب المذنبة، ثمّ يأتي دور غربان علي، زوجها.

-صحيح... عاش مرتضى، صاح أحدهم.

-ثم سيكون دور حسن لاجيفردي باعتباره ممثّل الله وإمامنا في هذه القرية...

-الحمد لله... طال عمر إمامنا... عاش السيد اللأجفردي، تابعت أصوات أخرى، وقد ازداد هيجانها.

-ثمّ يأتي دور ابنيّ المتّهمة الكبيريْن اللّذيْن سيستعيدان شرفهما بعملهما هذا، وهما حسين علي وحسن علي العزيزان علينا، واللذان يتألمان منذ هذا الصباح.

أضاف وهو ينظر مجدّدا لأهل القرية الذين خلدوا للصمت.

-وأخيرا، سيأتي دور أهل قريتنا. كلّ واحد سيكون له الحقّ في أن يرمي حجرا على هذه المرأة الفاسدة التي «دنّستنا كلّنا.

ازدادت صيحات الفرح، وارتفعت السواعد مهدّدة من جديد، وتقدّم الحشد بضع خطوات.

نزل مشهدي ابراهيم من الكرسي وتوجّه بالكلام إلى زهرة من جديد:

Twitter: @ketab_n

-زهرة خانم... انزعي «ال«تشادور» عن المتهمة.

منذ تلك اللحظة عرفت العجوز أنّ الأمر قد قُضِي. ولن يُوقف شيء سير الأحداث، وفتحت ببطء خمار ثريّا الأسود، فظهرت أمام الجميع بفستانها الأبيض. حينئذ لاحظ الشيخ مرتضى أن ابنته تحمل حول عنقها القلادة التي أهداها لها غداة وفاة زوجته شوكت، فاستقام في وقفته بمشقّة وصاح:

-انزعيها، أيتها الفتاة الساقطة، انزعي هذه القلادة...إنّها قلادة أمّك الطّاهرة... يا إلهي لماذا عليّ أن أتعذّب بهذا الشكل وأنهار.

نزعت زهرة خانم القلادة الذهبية الرقيقة عن عنق الفتاة وأعطتها إلى «الكدخدا»، الذي أعطاها بدوره إلى الشيخ الذي أسند بصعوبة. وحين استعاد بعض قواه، أخفى مرتضى الحلية في جيبه.

-أيتها المومس... يا من جلبت العار لعائلتك... أيتها المخلوقة البائسة... ارجعي إلى التراب.

كانت ثريّا حاسرة الرأس وعيناها لا تزالان مغمضتين. وأمسكتها زهرة برفق من ذراعها وأخذتها بخطى صغيرة نحو الحفرة الواسعة.

-صلّي يا ابنتي، صلّي كثيرا، لأنّ الله يسمعك وجنّته مفتوحة لك. وصلّي لنا أيضا، لأنّنا لا نعرف ما نفعل.

-لقد رغبت في أن تضمّها، لكنّها لم تقو على ذلك. وضغطت على ذراعها بشدّة قبل أن تتركها. وتلاقت نظرات المرأتين لبرهة قصيرة، وقد ودّعت كلاهما الأخرى.

-«عودي يا زهرة خانم، تعالي لتقفي إلى جانبنا»، قال العمدة.

كانت ثريّا تدير ظهرها إلى الحشد الصامت. كانت على مسافة أقلّ من متر من الحفرة، متصلّبة وساكنة. وكان شعرها الغزير يسقط على كتفيها ويصل إلى منتصف خصرها.

وبأمر من مشهدي إبراهيم استدارت في مواجهة أهل القرية، لكن

Twitter: @ketab_n

هذه المرّة كانت عيناها مفتوحتين. كانت تتفرّس في الصفّ الأوّل من القرويين الذين كانوا ينظرون إليها: كان هناك شكر الله جليلي ومحمد غرباني، المُساعديْن. والشيخ حسن، في قمّة غطرسته مرتديا زي الملا، وزوجها وابناها، كل واحد منهم يحمل حجرين في يديه. حينئذ التقت عيناها بنظرة أبيها، وخُيّل إليها في لحظة أنّها استشفّتْ فيها بعض الضيق والانزعاج، لأن مرتضى خفض عينيه عندما نظرت إليه ابنته. وبجانبه كان مشهدي إبراهيم، طويل القامة وجافًا، يستند إلى عكّازه، ومهدي الجزار ورسول النجار ومسعود الحلاق، ثمّ رجال آخرون، وتقوقعت زهرة في الأخير، ضئيلة جدّا بين النائحات.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 7 -

اقترب المهرّجون دون ضجّة، بعد أن أقفلوا على حيواناتهم في العربتيْن وراحوا يراقبون المشهد من بعيد. كانوا، بمساحيق الزينة التي يضعونها على وجوههم والأسمال المضحكة التي يرتدونها، مستعدين للمشاركة في المشهد، وقد تقدّموا بضع خطوات لكي لا يفوتهم شيء من «العرض».

لقد اجتمعت لديهم، منذ بدؤوا يسافرون من قرية إلى قرية، ألف حكاية وألف ذكرى أَثْرَت العروض التي كانوا يقدّمونها. كان ذلك يشبه وقائع عن الأماكن التي مرّوا بها، تتغيّر تبعا للأحداث والسنوات، إنها خرافة شفهية وكاريكاتير مضحك عن حياة يومية ريفية. ولكن لم يسبق لهم أبدا أن شهدوا حكما بالموت، فما بالك عندما يتعلّق الأمر بالرجم. ومن المؤكد أنّ الأحكام بالإعدام ما انفكّت تتكاثر منذ سنوات في جميع أنحاء البلاد. لقد سمعوا كثيرا من الحكايات عن الحكم بالشنق والإعدام رميا بالرصاص. و لكن هذه المرة سيكونون شهودا مذهلين لحدث لن يكفّوا عن روايته وعن تنميقه بقدر الرعب الذي أحسّوا به، حتى يملّ السامعون من ذلك.

وبإشارة من مشهدي إبراهيم، خرج شكر الله ومحمد من الصفّ الأوّل وأحاطا بثريّا.

كانت المحكوم عليها تقف في مواجهة الحشد الصامت. لقد رفعت رأسها وراحت تحدّق في زهرة العجوز التي كانت لا تكفّ عن النظر إليها.

وبإشارة أخرى من العمدة، رفع الرجلان المرأة الشابة ممسكين بها من تحت ذراعيها وأنزلاها في الحفرة.

صدرت همهمة عن الحاضرين. هذه المرّة سوف يبدأ العرض. لقد

Twitter: @ketab_n

أتوا من أجله ووقفوا مهتاجين أمام هذه المرأة التي لا حول لها ولا قوّة. كانوا في انتظار أمر من مشهدي إبراهيم، والحجارة في أيديهم.

عاد الحفارون حاملين رفوشهم و معازقهم و ملؤوا الحفرة. ومع كل حركة من رفوشهم، كان الرجال يردّدون «يا الله» لكي يستمدوا العزم على المواصلة.

لاحظت زهرة خانم أنّ الرجال ينفذون عملهم بنوع من الاحترام والضمير المهني. إذ لم تكن تصدر عنهم أيّة حركة فظّة وكانوا يتحاشون العنف والتسرّع. و بحرص شديد كانوا يحاولون عدم تلويث الفستان الأبيض الذي ترتديه ثريّا، وعدم خدشها. لقد كانوا ينجزون عملهم بإتقان. ورفع «الكدخدا» يده مرّة أخرى، فوضع الرجال أدواتهم.

لقد توارى جسد ثريّا في التراب حتى الكتفين بما في ذلك يداها، وظلّ شعرها الأسود الطويل منتشرا حولها. كانت تبدو غائبة عن الوعي تماما، تنظر دون أن ترى وتسمع دون أن تميّز الأصوات التي تضجّ حولها.

وتابع مشهدي إبراهيم كلامه:

«يا ثريّا مانوتشهري، هل لديك ما تقولينه أو تخبرينا عنه، في هذه اللحظة التي سيُنفّذ فيها حكم الله الذي ستكفّرين به عن ذنوبك؟»

المحكوم عليها كانت ذاهلة عن كل شيء، ذاهلة حتى عن العمدة. لقد صارت في حالة تبلّد وانطواء.

-إذا كان لديك ما تقولينه، فالوقت ما يزال مناسبا... بعد ذلك، يكون قد فات الأوان.

صار الصمت أكثر ثقلا. وكان الحشد الذاهل يترصّد أقلّ حركة من عيني المحكوم عليها وأقلّ كلمة قد تصدر عنها. غير أنّ زهرة كانت تدرك أنّ صديقتها ستلازم الصّمت إلى الأبد.

وتابعت النائحات عويلهنّ.

-للمرّة الأخيرة أطلب منك أن تتكلّمي؛ إذا كان لديك ما تقولينه

Twitter: @ketab_n

فالوقت مناسب للكلام، إذ بعد ذلك يفوت الأوان.

وانتظر مشهدي إبراهيم بضع لحظات ثم استدار نحو مرتضى رمضاني وسأله باحترام مبالغ فيه وهو ينحني نحوه قليلا:

-يا سيّد رمضاني، باعتبارك والد الزوجة الخائنة، هل لديك ما تقول؟

وحاول الشيخ المحني أن يستقيم في وقفته ثم أعلن بحنق:

-لتنفذّ إرادة الله... إنها لم تعد ابنتي... وأنا لست أباها... إنها غريبة بالنسبة إليّ...لننه الأمر بسرعة!

- عاش السيّد رمضاني! إنّه على حقّ، لننه الأمر بسرعة...!

ثم استدار العمدة نحو الشيخ حسن الذي كان قد خلد إلى الصمت منذ وقت طويل، وسأله مجدّدا:

-سيدي لاجيفردي، باعتبارك ممثّلا للإمام في قريتنا، هل لديك ما تضيف؟

وراح الشيخ حسن يشمّر على ساعديه بكثير من التكلّف، وحمل مصحفه الذي تحيط به المسبحة عاليا وهو يقول:

-لتنفّذ مشيئة الله العلي القدير ولتطبّق الشريعة الإسلامية..

وأنزل ذراعيه بحركة مسرحية.

المهرجون كانوا مذهولين وغير قادرين على تحويل عيونهم عن الطقوس التي تقام أمامهم. وقد ظلوا بعيدين عن الحشد من أهل القرية، منسيين من الجميع. لا أحد يفكّر فيهم أو ينظر إليهم.

وفي تلك اللحظة بدأ كل شيء.

حمل مشهدي إبراهيم الحاضرين على التراجع بضع خطوات وهو يفتح ذراعيه بحركة واسعة، ثم أخرج من جيبه خيطا. وعدّ خمسة عشر ذراعا، ثم قطع الخيط بحركات دقيقة بسكين وأعطاه لشكر الله.

-إنّ طوله يقارب سبعة أمتار أو ثمانية. اذهب وارسم دائرة بواسطة

Twitter: @ketab_n

بعض الجير انطلاقا من الحفرة.

ورسم شكر الله الدائرة على الأرض، جاعلا رأس ثريّا مركزا لها.

لقد تم وضع الديكور. الهدف مرئيّ من الجميع: كرة ساكنة بيضاء وسوداء يتعيّن على المشاركين في هذه اللعبة الرهيبة أن يصيبوها.

انتشر الحاضرون حول الدائرة في صمت تام. وكأنّ القرية تشارك في طقس موروث عن الأسلاف يعرف الجميع قواعده منذ أجيال ويتناقله الآباء عن الأجداد، ويلعب فيه مشهدي إبراهيم دور الحكم. المهرجون يحتبسون أنفاسهم، لا يجرؤون على التقدّم مخافة أن تصيبهم الحجارة. كانوا يقفون في مواجهة الرجال المسلّحين، تفصلهم عن رأس الضحية التي لا يرون منها سوى الشعر الأسود المبعثر على الأرض مسافة خمسة عشر مترا تقريبا.

تناول العمدة حجرا وقدّمه إلى مرتضى:

-إليك يا سيّد رمضاني شرف إلقاء الحجر الأوّل.. تفضّل.

وضع العجوز عصاه على الأرض وتناول حصاة كبيرة. لقد توكّل على الله، وتسلّح بحجر ثم صاح بكل ما لديه من قوّة وهو يلقي به تجاه ابنته:

-يا لله... هذا لك، أيتها العاهرة!

وأخطأ الهدف، فأعطاه إبراهيم حجرا آخر ألقاه العجوز مجدّدا، نافثا فيه كل حقده. لقد حاول عبثا أن يصيب ابنته أربع مرّات.

حينئذ قال وقد أعماه الغضب:

-أعطني حجرا آخر... سأذهب وأهشّم جمجمتها... سأكسّر لها رأسها!

وشرح له إبراهيم أنّه يتوجّب عليه ألاّ يتجاوز خطّ الجير بأيّ شكل من الأشكال، لأنّ ذلك سيكون مخالفا لشريعة الله.

وجاء دور غربان علي. وكان قد شمّر على ذراعيه و ترك أربعة أحجار قرب قدميه استعدادا.

Twitter: @ketab_n

كان ينتظر إشارة العمدة الذي قال بمودّة:

-جاء دورك يا بنيّ، ليرشد الله يدك.

وشد الزوج، الذي زعم أنّه مخدوع، ذراعه ثم ارتخت وانطلق الحجر بسرعة ومرّ على مسافة عشرين سنتمترا تقريبا من وجه المرأة. فلم تبدر عنها أيّ حركة تدلّ على الفزع، بل إنها لم تطرف بعينها.

وصاح الرجال الذين كانوا في الصفوف الأولى:

-هيا، يا غربان علي،... هيا... هذا جيّد، ستصيب هذه الكلبة...

تناول زوج ثريّا حجرا آخر، ورجحه بيده، ثم نظر إلى الجمهور. كان يبدو مثل رياضي في ملعب يريد أن يحقّق نتيجة ما. وامتدّت ذراعه من جديد فلامس الحجر رأس المرأة.

وصدرت عن الحشد صيحة تدل على خيبة الأمل، ولكن قبل أن يستعيدوا أنفاسهم، ألقى حجرا ثالثا، فأصاب هذه المرّة الكتف الأيمن للمرأة المنكّل بها. وخرج من فمها صوت لا يكاد يسمع. وترنّح نصفها الأعلى الهزيل للحظة.

تزايدت الصيحات و صفق الرجال. و ندت عن غربان علي ابتسامة، ثم أخذ حجرا آخر، وصوّب بانتباه أكثر ورماه. وفي هذه المرّة، أصاب زوجته في جبينها، قرب شعرها. فانسلخت البشرة، ونضح الدم وارتدّ رأس ثريّا إلى الخلف بقوّة.

سرت في الحشد ارتعاشة فرح. كان أهل القرية قد تقدّموا بضع خطوات دون أن ينتبهوا لذلك، متجاوزين خط الجير الذي كان يحدّد مسافة الرمي.

-لقد نجح... عاش غربان علي... لقد أصابها، مرّة ثانية، أصب هذه المومس...

وحمل ابنا الضّحيّة أيضا أحجارا وألقيا بها في نفس الوقت. ولم يصب المرأة التي دُفن نصفُها سوى حجر واحد. فصدر عنها ما يشبه الشهقة

Twitter: @ketab_n

ثم ترنّح رأسها إلى الخلف.

ظلّ المهرّجون على مسافة بعيدة، لأنّ قذائف كثيرة كانت قد أصابت أقدامهم. كانوا مذهولين وعاجزين عن القيام بأيّ حركة أو التلفّظ بأي لفظ.

الحجارة كانت تتطاير وتغطّي الأرض حولهم. وهناك، على مسافة بضعة أمتار أمامهم، كان الرأس الذي لم يروا وجهه أبدا يهتزّ على إيقاع الصدمات. ولاحظوا أنّ القرويين راحوا يتقدمون نحو هدفهم دون أن يشعروا، وأنّ الضّربات أصبحت أكثر دقّة.

وجاء دور الشيخ حسن، فوضع مصحفه في يده اليسرى وبيده اليمنى أمسك حجرا كبيرا. ولكنّه قبل أن يلقيه استدار نحو الحشد وقال بكلمات مفخّمة:

-لست أنا من يرمي الحجر.. إنّ الله هو الذي يرشد يدي... إنه هو الذي يسدّد خطاي وإنّي أثأر للإمام من الجريمة المخزية التي ارتكبتها هذه المرأة.

وصفّق الحشد بحرارة.

-سأرمي من الحجارة ما يكفي لقتل هذه الكلبة. ثم يمكنكم إلقاء حجارتكم بعدي.

وما إن بدأ الدم ينزف، حتى ابتعدت زهرة خانم. كانت تعرف أنّ احتضار ثريّا سيدوم زمنا طويلا، وكان عنف هذا المشهد الذي لا يحتمل والذي يزيد في هيجان هؤلاء المتفرّجين ويحوّلهم إلى وحوش، يضنيها. لقد كانت تعرفهم واحدا واحدا، وكانت شاهدة على ولادة أغلبهم، وفجأة ها قد تحوّلوا إلى كتل من الحقد و العار.

لقد استولى عليها الغمّ، فجلست على مقعد خشبي أمام المخبزة، محدّقة في الأرض.

وكلّما صاح الحشد كانت تفهم أنّ حجرا آخر قد أصاب ابنة أخيها.

Twitter: @ketab_n

لم يسبق لها أن شعرت بمثل هذا العار أبدا. ورغم أنّها كانت تدرك عجزها عن الوقوف في وجه هذا العنف، فقد لامت نفسها لأنّها لم تُقْدم على أيّة محاولة.

مشهدي إبراهيم كان يقدّرها وكثيرا ما استمع إلى رأيها. ولكنّ العمدة، الذي خلب الملاّ لبّه، صار من اليسير عليه أن يؤثّر فيه بعدما تقدّم به السن. يُضاف إلى ذلك صمت ثريّا، وفزعها هي، أمّا الباقي فستتكفل به الأكاذيب التي روّجها الزوج وحسن معا.

كانت تكرّر مرارا:

-آه لو كانت لي الشجاعة لكي أقول شيئا أدافع به عن هذه الصبية التي أثق في براءتها.

لقد أصبحت زهرة فجأة -وهي التي كانت قوية في العادة- خائفة وجبانة، مثل باقي نساء «كوبابيه»، المستسلمات كليّا لقانون الرّجال.

هل كان مشهدي إبراهيم سيسمعها لو قالت له كلّ ما تعرف، وكلّ ما عرفت ورأت وسمعت؟ أكانت تقدر أن تعيده إلى رشده وهو الذي كثيرا ما احتاج إليها في الماضي؟

ولكن ألم يشترك في هذه المكيدة الدنيئة؟ لقد صار عنيفا متعجرفا متسلّطا في وقت وجيز، بعدما كان في العادة هادئا ومنصفا، وكأنّ له مصلحة خفيّة في هذه القضيّة القذرة.

في مركز الدائرة، كانت ثريّا تحتضر ببطء. ولم يعد رأسها ونصفها الأعلى سوى ركام من اللحم الحيّ. كان الحشد الصاخب ينقضّ على الضحيّة بسعار. لقد انغلقت الدائرة حولها. ولم يعد جلد رأسها سوى جرح مفزع، وتهشّم فكّها كما انفجر أنفها وعيناها. كان رأسها مائلا بشكل قبيح مثل قناع كرنفال، على ما تبقّى من كتفها الأيمن.

وفي الصف الأوّل رفع حسن ذراعه، وقد تلطّخت ملابسه بالدم، وفرض الصمت.

Twitter: @ketab_n

-أصدقائي الأعزّاء...أنصتوا إليّ قليلا... أعتقد أنّ الله قد فعل ما يجب فعله. أعتقد أنّ مشيئته قد نُفّذت...فهل هناك من يريد أن يتأكّد من موت هذه الكلبة؟

وارتفعت عشر أيادٍ، فاختار حسن سعيدا الأبّار. حينئذ تمدّد الرجل قرب الضحية وقرّب أذنه من فم ثريّا المفتوح.

وقال الشيخ حسن وهو يستقيم في وقفته:

-إنّها ماتزال حيّة... الكلبة لم تقض نحبها بعد.

وتقدّم رجل ببطء موجّها حجرا نحو السماء. وبكلّ ما لديه من قوّة هوى على مؤخّرة الجمجمة مرّات عديدة. وتبعه رجل آخر حمل قطعة آجر ملقاة بجانب الضحيّة وسدّد لها بسعار نصف دزينة من الضربات. فانفجرت الجمجمة وتناثر المخّ على الأرض.

حينئذ علت صيحة فرح عظيمة:

-الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر!... الحمد لله!

ورفع حسن لاجيفردي مصحفه بهيئة المنتصر وأمر القرويين بأن يكوّنوا حلقة حوله.

-لنشكر فضل الله العلي القدير.

وفجأة، خيّم صمت كلّي. وبعد لحظات من الخشوع، ردّد الحشد مع المُلاّ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم...»

وحينئذ استطاع المهرّجون أن يروا ما كان يمنعهم الرجال الذين تجمّعوا حول ثريّا من رؤيته: كتلة دمويّة تحوّم الحشرات حولها.

و تراجعوا بضع خطوات إلى الخلف وقد تولاّهم الرعب، ولكنّهم لم يستطيعوا أن يحوّلوا أنظارهم عن المشهد الرهيب. بينما كان كلب سائب يحوّم حول هذا الجسد المهشّم دون أن يجرُؤَ على الاقتراب.

كانت زهرة خانم جالسة على مقعدها، واهنة القوى، لا تميّز أيّ صوت. كانت تعرف أنّ كل شيء قد انتهى و أنّ «القانون» الذي يريده

Twitter: @ketab_n

الرجال قد طُبّق بأمانة.

لم ترفع رأسها عندما رأت أمامها نعليّ مشهدي إبراهيم المهترئتين. فابتلع العجوز ريقه وقال:

-زهرة، لقد انتهى كل شيء... لقد أخذت العدالة مجراها... الآن صار كلّ شيء على ما يرام...

وتابع العمدة:

-ألا تريدين أن تقولي لي شيئا؟

حينئذ فقط استقامت وحدّقت في الرّجل الذي كان صديقها طيلة أكثر من نصف قرن وقالت:

-يا إبراهيم المسكين... أشعر بالعار لأجلك... ليسامحك العليّ القدير...

حيّاها «الكدخدا» باحترام، وقد تولّته الدهشة، وانصرف ببطء، مستندا إلى عكّازه. ومن الخلف، لاحظت زهرة أنه قد أصبح محنيّ الظّهر أكثر من العادة. ولم تَرْثِ لحاله.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 8 -

توارت الشمس خلف الأشجار، بينما ظلّت ثلاثة كلاب متشرّدة تحوم حول الجثّة، وقد اجتذبتها رائحة الدم. كان أهل القرية قد عادوا إلى نشاطهم. ومثلما يقتضي القانون، بقيَ جسد الشهيدة ممثَّلاً به ليكون عبرة لمن يعتبر.

كانت الحيوانات التي اجتذبتها الجثة تقترب منها مكوّنة دوائر متّحدة المركز ما انفكّت تضيق. وفجأة، حاول أحد الكلاب الاستيلاء على رأس ثريّا، فسحبه بقوّة لكي يقتلعه من الجسد. حينئذ، وثبت زهرة من مقعدها وركضت حاملة هراوة في يدها و هي تصيح مسعورة:

-اذهبي، أيتها الحيوانات القذرة، اذهبي.

وحملت حجرا ألقته أمامها دون أن تصيب الكلب. فتراجع الحيوان إلى الوراء وكشّر عن أنيابه. وجاء قرويون آخرون بدورهم وطردوا الحيوانات الثلاثة التي لاذت بمكان قرب المهرّجين وجلست مزمجرة.

أمرت العجوز:

-أحضروا لي غطاء... بسرعة... أو ملاءة... أو أي شيء.

غُطّيت جثّة المرأة المرجومة، ورجع الجميع إلى أعمالهم. كانت الساعة تشير تقريبا إلى السادسة مساء. وخيّم على القرية نوع من الخدر. في السوق، كان المشترون قِلّة وعمليات البيع تتمّ بصوت منخفض. ومن حين إلى آخر كان يرتفع صوت صبي، أو صوت أمّ تنادي طفلها أو نعيب غراب. وكان يمكن مجدّدا سماع خرير الجدول وحفيف نسمة رقيقة بين الأشجار.

بدأ المهرجون بفكّ متاعهم، وآثار الصدمة ما تزال بادية عليهم،

Twitter: @ketab_n

غير أن جميع حركاتهم كانت تبدو بطيئة. لقد نصبوا سلّمهم، وفرشوا سجادات على الأرض، ووضعوا قردهم على صندوق، ووضعوا اللمسات الأخيرة لـ «مكياجهم».

أمّا أعضاء المجلس البلديّ فقد اجتمعوا في منزل الشيخ حسن لتناول الشاي والتدخين. وظلّوا صامتين لوقت طويل كما لو أنّهم قد تفطنوا أخيرا لفداحة فعلتهم. وكان حسن يراقبهم واحدا واحدا من خلف نظّاراته الرماديّة بهدوء، وعندما أنهى كأسه قال:

-سيّدي العمدة، سيّدي رمضاني، عزيزي غربان علي، وأنتم جميعكم، إنّ لحظات التفكير والخشوع هذه تكفينا لكي نفتح صفحة جديدة. لقد شاء الله أن تجري الأمور على هذا النحو ولا تنسوا أنّ ما فعلناه ليس سوى تنفيذ لمشيئته. واعلموا أنّ هذه المخلوقة ليست أوّل من رُجم في بلدنا منذ أن سادت شريعة العليّ القدير. لقد سبقتها عشرات وستلحق بها آخريات إذا عصين أوامر الله مجدّدا... لاشيء نخاف منه، ومنذ الغد سأعلم سلطات الإقليم بما حدث اليوم عندنا. واعلموا أنّ «كوبابيه» قد صارت في ساعات قليلة قرية نموذجيّة سيتحدّث الناس عنها في كامل البلاد...

كان الرجال الذين يقارب عددهم العشرة يستمعون بوقار، مقاطعين الكلام برشفات شاي صاخبة وتعاليق يهمسون بها وهم يحرّكون رؤوسهم: «إنه على حق... إنه على حق.»

-أصدقائي، لقد كان الشرّ موجودا بيننا ولم نكن نعلم ذلك... ولحسن الحظّ فإنّ العليّ القدير برحمته الواسعة قد أرشد خطاي إلى هذه الجبال. لقد شاء الله أن أنقذ قريتكم من الشرّ والخطيئة. فلنحمد الله ورسوله...

وارتفع صوت الجميع بالصلاة في وقت واحد بنبرة عالية:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم...»

Twitter: @ketab_n

وفجأة، شرع الشيخ مرتضى رمضاني، والد المرأة المنكّل بها، ينتحب. كان يلطم رأسه بقبضة يده بعنف، ويقول بين شهقة وأخرى:

-إني أشعر بالعار... يا إلهي كم أشعر بالعار... ولكن كيف يمكن ذلك...يا إلهي يا صاحب القدرة، ارحمني... يا إخواني، سامحوني...

وكان الرجال الآخرون يشعرون بالضّيق ولا يدرون أيّ هيئة يتّخذون. فأمسك الملاّ بزمام الموقف في يده مجدّدا:

-يا سيد رمضاني، ما من سبب يدعوك لأن تشعر بالعار... كلّنا نحبّك ونحترمك. أنت أكبرنا سنّا وستجد بيننا دائما المعونة والمودّة اللتين تحتاج إليهما. أنت في قريتك هنا ولن يوصد أي منّا باب بيته في وجهك في يوم من الأيام. ولن ننسى أبدا أنّك كنت أوّل من ألقى حجرا على المرأة الزانية، لقد كنت قدوتنا، ونحن فعلنا مثلك كأبناء لك. ونشكرك من أجل ذلك.

ووافق الجميع وهم يصفّقون.

وتمتم العجوز كلمتين أو ثلاثًا شاكرا الشيخ حسَنًا، ثم ظلّ ساكنا، مخبّئا وجهه بين يديه. حينئذ تكلّم مشهدي إبراهيم.

-من كان يصدّق لحظة، عندما استيقظنا هذا الصباح، أن أشياء مماثلة قد تحدث في قريتنا اليوم؟ إنها مشيئة الله، وكما قال السيد لاجيفردي منذ قليل، نحن اكتفينا بتنفيذ مشيئته. ولكن لا شكّ أنّنا نحتاج إلى زمن طويل لكي ننسى ...

قال غربان علي مقاطعا، وهو الذي كان يجلس بعيدا عن الرجال الآخرين:

- هذا خطأ... هذا خطأ. أنا نسيت كلّ شيء... ما عدت أرغب في التفكير في الأمر ولا في الحديث عنه...بالنسبة إليّ، انتهى كلّ شيء.

ثم نهض، وقلب كرسيّا وهو يدمدم في طريقه، وخرج وهو يرطم الباب. فخيم مجدّدا صمت عميق.

Twitter: @ketab_n

تابع مشهدي إبراهيم الكلام:

-...أكرّر ما قلته: نحتاج إلى بعض الوقت لكي ننسى هذا اليوم، خصوصا بالنسبة إلينا، نحن الشيوخ. إنه درس لنا جميعنا، كبارا وصغارا. إننا نتألم لألم مرتضى...

ووافق الشيخ حسن برأسه.

-الآن يجب دفن ثريّا وأظنّ أنّ السيد لاجيفردي لديه ما يقول في هذا الشأن.

حينها اتجهت جميع الأنظار نحو الملاّ المزيّف الذي لم يتوقّع هذا السؤال:

-أجل... هذا صحيح... يجب أن نتخلّص من جثّة المرأة قبل غروب الشمس... لكنّي أعتقد أنكم تتفقون معي على أنّه لا ينبغي أن تُدفن في مقبرتنا. فليس ذلك مكانها.

وفي هذه المرّة، كان إبراهيم هو الذي فوجئ. ووافق بقية الحاضرين الشيخَ حسَنًا.

و قال شكر الله:

-لا نريدها في مقبرتنا... فمكانها ليس مع موتانا.

و قال محمد غرباني:

-إنّه على حقّ، ليس معنا.

و قال رجل ثالث:

-نحن لا نريدها.

حينئذ سأل إبراهيم مرتضى:

-وأنت يا صديقي ماذا تقرّر؟

وبدا أن العجوز لا يسمع.

-مرتضى، ما هي رغبتك؟ أين تريد لثريّا أن تدفن؟

وظلّ والد المرأة المرجومة مُسمَّرا في مكانه صامتا.

و قال الشيخ حسن:

Twitter: @ketab_n

-إذا لم يكن أحد يريدها أن تدفن في المقبرة، فعليكم أن تختاروا مكانا خارج القرية. أنتم تعرفون هذه المنطقة أفضل منّي، وأترككم تقرّرون فيما بينكم.

لم يرسوا على قرار. ولم يكن الجدل لينتهي، وكادت الأيادي تتدخّل. حينئذ اقترح الملا:

-حسب ما فهمت، فإنكم لا تريدون دفنها لا في المقبرة ولا خارج القرية، لأنكم لا تريدون لأرضكم أن تدنّس... هل يكون ما فهمته صحيحا؟

وافق الرجال بحركة غير واضحة من رؤوسهم.

-أعتقد أنّ الحلّ عندي. ولكنّي أحتاج لموافقتكم جميعا. هل أنتم موافقون على أن ثريّا مانوتشهري قد دنّستنا كلّنا وأذلّتنا؟

أجاب جميع الرجال بصوت واحد:

-أجل، لقد لوّثتنا جميعنا وأذلّتنا!

-كلّكم موافقون أنّها كانت مسلمة سيّئة وأنّها افترت على الله؟»

وكان الجواب بالإيجاب مرّة أخرى.

-أنتم موافقون أيضا على أنّها قد خالفت أقوال رسولنا.

وافق الحاضرون مجدّدا.

-... وأنها قد خالفت تعليمات إمامنا المحبوب؟

-نعم، لقد فعلت ذلك!

-إذن، اعلموا أن اقتراحي هو الآتي: لن يتمّ دفنها...

وتبادل الرجال النظرات مندهشين، دون أن يتفوهوا بكلمة.

-لقد سمعتموني جيدا، لن تدفن!

وقاطعه مشهدي إبراهيم قائلا:

-إننا ننصت إليك يا شيخ حسن، أنا على يقين من أنّ قرارك هو عين الصواب.

Twitter: @ketab_n

-لقد عاشت ثريّا مانتوشهري حياة مبنيّة على الخداع والعار. وخانت ثقة الله ورسوله وإمامنا. كذبت على عائلتها، وعلى زوجها وأطفالها. خدعت جميع من في القرية وحاولت أن تبعد صديقنا هاشم عن الطريق المستقيم، وهو الذي مازال يبكي موت زوجته المبكر جدّا. لقد عاشت مثل كلبة. وبناء على هذا فإنّ جسدها سيقدّم كطعام للحيوانات الوحشيّة التي ستتكفل بإزالته من الوجود.

ما كان إبراهيم يصدق أذنيه. لقد أراد أن يقول شيئا، ولكن الرجال وافقوا على كلام حسن بحماس.

-إنّه الحلّ الأنسب... لتوضع الكلبة مع الحيوانات... لن يكون هناك دفن... فنحن لا ندفن إلا المسلمين ...

ورفع حسن لاجيفردي يديه:

-أصدقائي الأعزاء، أقترح أن لا نتولّى نحن، الرجال الذين يعيشون بكرامة في هذه القرية، هذه المهمّة. فلندع النساء يقمن بذلك. إذا أراد سعيد ورسول أن يساعدا برفشيهما في إخراج الجسد من التراب، فأنا موافق، و لكن بعد ذلك، ستتولى النساء تخليصنا من هذه الجيفة...

-نحن موافقون... هيا بنا!

وقف الرجال وخرجوا. وحثّ حسن وإبراهيم الخطى. وانحنى العمدة على الملاّ وقال له:

-أعتقد أنه عليك أن تذهب في الحال لتكلّم زهرة خانم. أنت الوحيد الذي يقدر على أن يبلّغها قرارنا. النساء لا يفعلن شيئا دون موافقتها...

و دمدم مشهدي إبراهيم:

-لن يكون ذلك سهلا، إنّك تعرفها...

-أنت تعرفها أفضل مني... وسوف تجد الكلمات المناسبة... ولكن عليك بالإسراع...

ودوّى صوت مزمار وطبل. واتجهت كلّ الأنظار نحو المهرّجين. كانت

Twitter: @ketab_n

العنزة قد اعتلت المقعد والقرد يتشقلب.

و صاح حسن وهو يتقدّم بخطى واسعة نحو المهرّجين:

-توقفوا... توقفوا... لم يحن الوقت... انتظروا حتى تنظّف الساحة تماما، وبعد ذلك يمكنكم البدء.

و هدأ كلّ شيء من جديد وتوقّف القرد عن القفز.

ذهب «الكدخدا» إلى منزل زهرة وطرق الباب. كان يخشى هذا اللقاء وأعدّ الكلمات التي سيقولها لها. لم يتراجع طيلة النهار، لذلك فلن تخور قواه الآن، وقد انتهى كلّ شيء. طرق مرّة أخرى. أخيرا وصله الجواب فدخل.

-كان الله العلي القدير معك، يا زهرة خانم، ومع أهلك.

ردّت له التحيّة باقتضاب بحركة من رأسها وطلبت منه أن يجلس. كانت العجوز تجلس على وسادة مباشرة على الأرض، حيث كانت توجد ثريّا منذ ساعات قليلة، وكانت تدخّن ببطء سيجارة لفّتها بنفسها. وكان أمامها كوب شاي يتصاعد بخاره، ولكن خلافا للعادة، لم تسأل زائرها ما إذا كان يريد بعض الشاي.

-أعرف لماذا أتيت وأجيبك بـ «لا» على الفور.

وسأل العمدة منذهلا:

-على أي شيء تقولين لا؟ أنا لم أتكلم بعد.

- أنت تعرف الأمر جيّدا: عن دفن هذه المسكينة ثريّا. لا تتّكل عليّ. أنتم الذين ارتكبتم هذا العمل الوحشيّ، وعليكم أن تتكفّلوا بالأمر. وليس علينا نحن النساء...

«هذه بداية سيئة»، قال إبراهيم في نفسه. وأخرج غليونه من جيبه وحشاه بعناية.

-ليس هذا ما أتيت من أجله، يا زهرة، أو على الأقلّ ليس هذا بالضبط.

Twitter: @ketab_n

كان عليه أن يمسك بزمام الأمور مجدّدا وبأسرع ما يمكن، و إلاّ فإن العجوز ستطرده من منزلها دون أن يتمكّن من أن يعرض عليها فكرة الشيخ حسن.

-زهرة خانم، لقد أتيت لأنقل لك قرار مجلس القرية...

- ... إنك تريد على الأرجح أن تحدّثني عن القرارات التي اتخذها غراب الشؤم هذا الذي يرتدي زيّ مُلاّ، دعني أقل لك شيئا، فكلانا يعرف الآخر جيدا، أنا وأنت. أنت غير موافق على ما ستقوله لي وتعرف أنّي أنا أيضا غير موافقة... هل أنا مخطئة... تكلّم؟»

كان العمدة يعرف أنّ الأمر لن يكون سهلا و لكنّه بادر بالقول:

-ليس لرأيي أهميّة. لقد صوّتنا واتُّخذ القرار. وعليّ أن أطبّقه.

- إذن لماذا أتيت تحدّثني؟ وهل كان للنساء رأي في هذه البلاد منذ سنوات؟

- لقد أتيت لأقول لك إنّ دفن ثريّا قد مثّل مشكلا، فلا أحد يريدها في المقبرة الجماعية...

- هل اتّخذتم رأيي في ذلك؟ وإذا قلت لك إنّي أريدها أن تُدفن قرب أهلها وأمها؟

- ليس هذا ما أردت أن أقوله لك. الشيخ رأى أنها لا تستحق أن تدفن؟

- أعد ما قلت، يا مشهدي إبراهيم! تجرّأ على إعادة ما قلت الآن! لم تكن تستحقّ ذلك؟

- حسب شريعة الله ليس من حق أيّ امرأة مرجومة أن تدفن، وحسن هو الذي يقول ذلك.

- وكيف عرف ذلك... ربّما يكون قد رجم نساء أخريات من قبل؟

- لقد قال إنّ الذين انحرفوا عن طريق الله لا يمكنهم أن ينضمّوا إلى الّذين عاشوا بكرامة.

كان النقاش حادا وطويلا بين العجوزين. وتمسّك كلاهما بموقفه،

Twitter: @ketab_n

ولكن عندما خرج العمدة من منزل زهرة في آخر الأمر، كان قد توصّل إلى جواب مُرْض. سوف تحمل النساء جسد المرأة المنكّل بها خارج حدود القرية.

وكُلّف سعيد ورسول بالمهمّة المشؤومة. ورغم الغطاء الذي ألقي على المرأة المرجومة، فقد بدأ الذباب والديدان يكاثران. شرع الرجلان يحفران، وغدت الرائحة لا تحتمل. والكلاب التي اقتربت أصبحت تنبح أكثر فأكثر.

عندما أُخرج نصف ثريّا الأعلى مجدّدا، مال رأسها جانبا مثل بطيخة كبيرة مهشّمة، مُحدثا صوت غصن يتكسّر، وانفصل عن الجذع. وتوقّف الرجلان عن العمل وحوّلا أنظارهما.

وعندما أصبحت الحفرة واسعة كفاية، نزل فيها الرجلان وأمسكا بالجسد الذي اقتُلع رأسه -وكانت المرأة مازالت ترتدي فستان زهرة الأبيض- ثم أخرجاه.

عندئذ تدخّل الشيخ حسن الذي كان يقف في الصفّ الأوّل:

-شكرا أيّها السادة، إذهبا الآن ونظّفا نفسيكما... وإنّ أجْرَكُما عند الله.

وابتعد سعيد ورسول بسرعة متّجهين نحو الجدول.

-غطّوا هذا الجسد لبعض الوقت، قبل أن تأتي النساء ليقمن بعملهنّ.

كانت الكلاب الهائجة قد اقتربت من الجثة وأخذ أحدها يجذب الغطاء، كاشفا عن الجسد المشوّه مرّة أخرى. ولكن قدوم النساء أبعد الكلاب التي تحوّلت إلى حيوانات ضارية بفعل الرائحة.

أحسّت زهرة بالغثيان عندما رأت هذا المشهد الذي لا يُحتمل. ووضعت منديلا على أنفها. أعطت بعض التعليمات فتمّ فرش غطاء كبير على الأرض، وبمساعدة إكرام وسكينة، وُضعت ثريّا في الكفن. وأُحضر غطاء آخر، دُثّر به الجسد. ثم وُضع على عربة سحبتها النساء بمشقّة

Twitter: @ketab_n

خارج الساحة، تتبعهنّ الكلاب التي ما انفكّت تزداد شراسة.

كان مشهدي إبراهيم قد عيّن ثلاثة رجال لينظّفوا مكان العقوبة. وتمّ ردم الحفرة الكبيرة، ثمّ سُوّي التراب ومُشّط لكي يختفي أي أثر للدم. وأحضر سعيد بعد ذلك منقلة مليئة بالتراب وغطّى به الأرض.

اجتاح برد المساء القرية. وأتى المهرجون إلى الساحة ليركبوا منصتهم.

وفي الأثناء، كانت زهرة خانم ورفيقاتها في منحدر النهر، على بعد كيلومتر من القرية، منحنيات على عربتهن المهتزّة. وكلّما ارتطمت العربة بحجر في الطريق، تحرّكت الجثّة وهي تكاد تسقط في كلّ لحظة.

وفي المنعطف الخامس توقّفت النساء ليسترحن قليلا. بدت زهرة منهكة. لقد هرمت في يوم واحد أكثر ممّا هرمت في عشرين سنة؛ وبدت أكثر انحناء. البارحة قبّلت ثريّا التي زارتها في منزلها لكي تحضر لها بعض الغلال من حديقتها. وبعد أربع وعشرين ساعة، كانت تنقل جسد ابنة أخيها المنكّل به.

كانت تعيش كابوسا.

-إلى أين نحن ذاهبون يا زهرة خانم؟

قطعت إحدى النساء الصمت، موقفة العربة التي كانت تنزلق على الأرض الجافة.

-إلى المنعرج المقبل، سنحمل ثريّا قرب الجدول. هو مكان كانت تحبّه كثيرا. أعتقد أنّه أفضل مكان لها.

ووافقت رفيقاتها، وتابعن طريقهنّ الجنائزيّ. وكانت الكلاب تشمّ الأرض وتتبعهنّ من بعيد.

وأخيرا، توقّف الموكب الصغير. وثُبّتت العربة بصخرتين كبيرتين. وتحزمت النساء بـ«تشادورهنّ»، وأمسكن بالجسد المغطّى بقماش بُنّيّ بعناية فائقة. ووضعنه على بعد عشرة أمتار تقريبا، أسفل الطريق، قريبا من الجدول، بين دغلين شائكين.

Twitter: @ketab_n

حرصت زهرة على أن يُدثّر الجسد وأن تُطوى أذيال الغطاء بعناية، لكي لا تتمكّن الزواحف والحشرات من النفاذ إليه.وأحاطته بصخور وغطّت كلّ ذلك بكومة من الأغصان وأوراق الأشجار الجافة. لازمت النساء الصمت لوقت طويل. ثم صعدن المنحدر ورجعن إلى القرية وهنّ يسحبن العربة الفارغة الملوّثة بالدم. وباقترابهنّ، كانت أصوات المزمار والطبول تصبح أكثر قوّة. وعندما وصلت زهرة إلى الساحة، فوجئت بمشهد مذهل. كانت نيران بهيجة تتّقد في نفس المكان الذي رجمت فيه ثريّا، وكان أهل القرية يرقصون حول النار. لقد بدأ المهرّجون عرضهم. النساء يرقصن مرتديات أجمل ما لديهنّ من ملابس متعدّدة الألوان، فيما الرجال يدورون حول أنفسهم حاملين في أيديهم مناديل بيضاء مطلقين صيحات فرح. مذهولة، لم تكن زهرة تصدّق ما ترى. ها إنّ أهل القرية يتسلّون بالغناء والرقص، كما لو أنه «شهر شمبه سوري»[1]، حيث توقد نيران الفرحة في جميع أنحاء البلاد لكي تطرد الأرواح الشريرة القديمة.

وتعرّفت إلى سعيد ورسول اللّذين أخرجا الميتة منذ قليل، ومهدي الجزار، وكان يتنطنط حول مسعود الحلاّق. وعلى مسافة من هناك، رأت مساعديْ إبراهيم يغنّيان ويرقصان، ثم رأت الأعور ويد الله الراعي وابنه، في غاية النشوة، وكريم وأصغر ومجيد ومحسن ورحمة الله و علي أكبر وجميع الآخرين. وأبعد من ذلك كان حسين علي وحسن علي ابنا الضحية يقتسمان بطيخة.

وأخيرا، رأت مشهدي إبراهيم والشيخَ حسَنًا أمام المخبزة. وبجانبهما، كان مرتضى،أبو الضحيّة، منكفئا على نفسه، وكأنه نائم. كان الرجلان يتناقشان بحدّة. وعندما رأيا النساء يقتربن، صمتا، وحيّا تحية خفيفة برأسيهما، ومرّت زهرة بجانبهما دون أن تلتفت.

---

(1) هي الفترة التي يحتفل فيها الإيرانيون بأعياد نوروز، أي بالعام الجديد الذي يبدأ في 21 مارس، بحلول فصل الربيع. وتعني كلمة نوروز اليوم الجديد.

Twitter: @ketab_n

دخلت إلى منزلها ولطخت الباب. واختفت النساء الأخريات في الظلام، وتركن القرية تحتفل بعيدها القذر.

في اليوم الموالي، غادرت زهرة منزلها في الصباح الباكر. وحتى لا يتفطّن إليها أحد، التصقت بالجدران، وتركت القرية مثل لصّة.

كان الدخان لا يزال يتصاعد من رماد النار. وكان المهرجون يغطّون في النوم قرب عرباتهم. نزلت زهرة عبر المنحدر الذي مرّت منه البارحة، وقطعت مسافة كيلومتر إلى أن وصلت إلى المنعرج السادس وهناك، اتّبعت طريقا مختصرا عبر الغاب، وباقترابها من الجدول، لم تستطع كبح صيحة فزع.

على مسافة ثلاث خطوات منها، كانت الكلاب المتشرّدة الأربعة تنام، شبعانة وراضية، وكانت مخاطمها وفراؤها مخضّبة بالدم المتخثّر. لم يتبق شيء من جسد المسكينة. فقد التُهم كلّ شيء. وكانت عظام آدمية، وطرف من الغطاء البنيّ وأسمال ممزّقة متناثرة هنا وهناك، وعلى مسافة قليلة، كانت بقايا رأس ثريّا ملقاة على الأرض...

استندت العجوز إلى شجرة وتقيّأت، ثم جثت على ركبتيها. لقد خارت قواها. وظلّت مسمّرة في مكانها على ذلك النحو طوال ساعة. ثم استعادت قواها شيئا فشيئا ونهضت. وبما تبقّى لديها من قوّة، حملت أكبر حجر وجدته ورشقت به أحد الكلاب النائمة، مستمدّة من يأسها قوّة. عوى الحيوان من الألم وفرّ عبر الخيس، وتبعته الحيوانات الأخرى التي تولاّها الفزع.

تحزّمت زهرة بـ«تشادورها» مجدّدا، ثم جثت على ركبتيها، وراحت تحفر الأرض بيديها. كانت التربة طريّة ومبلّلة. وعندما صارت الحفرة واسعة بعض الشيء، جمعت عظام ثريّا ابنة أخيها، عظما عظما، وذهبت للجدول حيث غسلتها، ثم عادت ووضعتها في القبر الذي غطّته بالأوراق والأغصان. وحينئذ فقط، صلّت وأجهشت بالبكاء.

Twitter: @ketab_n

ألف ـ راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

ساعي بريد نيرودا

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

Twitter: @ketab_n

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَويّ، فعالم الرواية الافتراضي متاهة يتعذّر أن ينجو منها أحد. وعلى النقيض من معظم الأعمال السردية حيث يختل توازن الأحداث ثم يعاد في النهاية؛ فإن نسق الاختلال يتعمّق بمرور الزمن، ولا يعود إلى سابق عهده أبدا.

رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطروننني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليل منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

Twitter: @ketab_n

انقطاعات الموت

المؤلّف: خوزيه ساراماغو
البلد: البرتغال
ترجمة: صالح علماني

هذه الرواية تكاد تكون ملحمة فى مديح الموت و«ساراماجو» الذى يكتب دون ضغينة أو كراهية حتى أنه يدعونا إلى محبة الموت يضعنا حسّه الفكاهيّ وسخريته اللاذعة منذ بداية الصفحات أمام مفاجأة فانتازية صاعقة: «فى اليوم التالى لم يمت أحد»، لقد انقطع الموت فى دولة صغيرة -لا اسم لها- وأصبح سكانها لا يموتون ويبقى مريضهم على حاله، وقد يبدو الأمر رائعا في البداية لمن يتوقون إلى الخلود ولكن سرعان ما يوضّح «ساراماجو» أنّها كارثة تهدد البشرية، فالحكومة لا تستطيع التعامل مع هذا الموقف غير المألوف، ولقد تعثّر نظام المعاشات التقاعدية ولم تعد المستشفيات ودور المسنين تفي بالغرض، وأفلست مؤسسات تجهيز الموتى ودفنهم. لقد أثار غياب الموت فوضى ليس لها مثيل ولم تعرفها المجتمعات من قبل وعلى البشرية أن تقبل به بوصفه وجه العملة الآخر للحياة، فالمرء لا يستطيع العيش من دون الموت، ومع أنه يظهر كتناقض ظاهري للحياة فإنّنا في الحقيقة يجب أن نموت لكي تستمر الحياة.

«ساراماجو»... ماكر وخبيث ولذيذ ..

الناشر

Twitter: @ketab_n

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

بهذا العمل الصادر في مطلع الألفيّة الثالثة، استردّت الرواية الإيطاليّة حيويّتها على يدي نيكولو أمانيتي، مُفتتحةً عصرا جديدا من السرد لا هاجس له غير التغلغل في أعماق الحياة الحديثة والاكتواء بأسئلتها .

رواية معاصرةٌ، الشبابُ موضوعها وسؤالها ومنتهاها، تتكلّم بلغتهم وتروي حياتهم وتُعلي من أصواتهم المكتومة خلف جدار الصّمت. إنّها رواية جيل جديد بقي خارج اهتمام الأدب وصار وجوده مزعجا ولكنّه حقيقة كالشمس. ماهي أحلام هذا الجيل؟ ماهي هواجسه وتطلّعاته؟ ذلك ما تتكفّل بمحاولة الإجابة عنه هذه الرواية، ولكنّها محاولة لا تخمد الأسئلة بل تولّدها وتطرحها عارية في وجه العالم بلا حذلقة لغويّة. تسمّي الأشياء الجديدة بلغة جديدة، ولا تمرّ بل تبقى حاضرة فينا حتّى تجبرنا مباشرة على النظر، مثلما تتّخذ الفتاة الجميلة في عتبة الرواية القمر مرآة إلى أن يقول لها: «أنت جميلة... أنت جميلة...»

كيف انتقل بنا أمانيتي من منطقة الخيال إلى صميم الواقع؟ كيف قوّض المسافة بينهما بكلّ براعة ويسر؟ وكيف استدرج شخصيّاته إلى النطق ولم ينطق على لسانها؟ ذلك أيضا ما تتكفّل بإبرازه هذه الرواية بلغة متوهّجة حيّة تمزج بين الكوميديا والتراجيديا، بين القسوة والبراءة في ثلاثة أيّام هي كلّ عمر أحداث الرواية ولكنّها تعتصر حياة بأسرها، تأخذنا وتحملنا بعيدا.

لمع نجم الكاتب بعد هذه الرواية التي حصدت العديد من الجوائز، وتمّت ترجمتها إلى 21 لغة وباعت ملايين النسخ.

الناشر

Twitter: @ketab_n

مِيتَتان لرجل واحد

المؤلّف: جورج أمادو
البلد: البرازيل
ترجمة: عبد الجليل العربي

كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، أن يهجر عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، أن يعيش متسخا، ملتحيا، يسكن في حظيرة وينام على فراش بائس؟ .

خبر موته مثّل فاجعة المدينة ومأساتها.

وإذا كانت رغبة العائلة، هي دفن «جواكيم سواريس دا كونيا» صاحب كنية، «كينكاس هدير الماء»، بطريقة محترمة، فقد كان لأصدقاء عمره رأي آخر.

لذلك لم يجئ الأصدقاء الأربعة لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان صديقهم العزيز فحسب، و إنما، لتصحيح خطإ في رواية موته حين لم يقتنعوا بأن كينكاس «ملك مشردي باهيا» الذي أقسم ألا يموت إلا بين الأمواج يمكن أن يلقى حتفه، هكذا، على سرير رث في غرفته في طوباو. ومن هنا سيعيدون تشكيل الحكاية من جديد.

تُرجمت هذه الرواية إلى 50 لغة وأجمع النقّاد على أنّها تمثّل رغم قِصَرِها تحفة أمادو النادرة طوال مسيرته الحافلة بالإصدرارات.

الناشر

Twitter: @ketab_n

زوربا اليوناني

المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

«لقد أربكتني هذه القصّة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحبّ رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا ستطاردني حتّى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد

«زوربا»... شخصيّة ورمز... توقّف عن أن يكون وجها وقسمات ليَصيرَ علامةً... علامة بكلّ مفهومها التأويليّ... إحالة تقود إلى إحالة لِتَدُلَّ على إحالة.. وتتواصل السلسلة...

شخصيّة فاضت على كلّ حدّ وهربت من سجن الرواية على رحابته لتُصبحَ رمزا للمهمّشين، للّذين يتعلّمون من الحياة، فيلسوفا يعلّم الفيلسوف، حكمتُهُ خبراتُ المعيش ومعترك الوجود الإنسانيّ... رقصة زوربا انتهت دستورا ورؤيةً للكون، رؤية تسخر من المعارف المتطاولة على الدنيا، المتعالية على الأرض. وتثور على وضع تكون فيه إمّا خادما أو مخدوما... تكسر كلّ قالب لتأتيك في كلّ لحظة بدرس جديد مُلخَّصُه: لاشيء يعلو على صوت الحياة الصاخب...

ظافر ناجي

Twitter: @ketab_n

عالم يتهاوى

المؤلّف: تشنوا أتشيبي
البلد: نيجيريا
ترجمة: محمد الحبيب الكحلاوي

□ «كاتب في رفقة أعماله انهارت جدران السجن»

الزعيم الراحل نيلسون مانديلا

□ «له موهبة متّقدة وعظيمة، موهبة مفعمة بالحماس والثراء»

نادين غورديمير، جائزة نوبل للآداب سنة 1991

□ «إنّ أعمال أتشيبي تتكلّم من داخل الشخصيّة الإفريقيّة، ولا تصوّر الرجل الإفريقيّ بوصفه شيئا غريبا وعجيبا كما يراه البيض»

وول سوينكا، جائزة نوبل للآداب سنة 1986.

□ «إنّها رواية الخسران العميم، حيث يتهاوى كلّ شيء: الأشياء، والذكريات، وقيم القبيلة، في وجه الحضارة القادمة من الغرب، ولا يبقى غير الصّمت المتدلّي من جذع الشجرة في آخر الرواية، دليلَ إدانة إزاء الاستعمار البريطاني لشعب الإيبو.

والرواية مسكونة بإيقاعين متنافرين، تطغى السكينة على أوّلهما فتكاد أحداثها لا تتقدّم إلاّ لتكشف عمّا يعتمل في صلب الشخصيّات من جَيَشَانٍ، وعمّا يحرّكها من رؤى، بينما يقلب الثّاني كلّ شيء رأسا على عقب، ويفضح بشاعة الكولونياليّة المتحجّبةخلف قناع المقدّس، وبين الإيقاعين تتحرّك الأحداث والشخصيّات والمصائر ومعها تتحرّك ثقافة بأسرها في الطريق إلى حتفها.

الناشر

Twitter: @ketab_n

عرس الشاعر

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

إنه عراب السرد الشيلي بلا منازع.

هذا المجنون الآسر الذي بعث فينا النشوة بروايته المذهلة «ساعي بريد نيرودا» هو الوحيد الذي يجعلني أتوقف بعد قراءة أي عمل له عن أي قراءة أخرى، إنه قادر أن يختزل البحر في موجة والربيع في باقة من الأزهار والسحر كلّه في رواية، وعلى يديه غدت جزيرة «جيما» المعزولة عن العالم، البدائية بالنسبة إلى بعضنا، جزيرةً حية، ترتعش.

في هذه الرواية تشعر بطعم الدم، والنبيذ، وزيت الزيتون، والسمك المشوي، طعم الخيبة، وألم الهزيمة، ويقين النهايات..

رواية تشنف سمعك بالسخرية والبذاءات، والشعر، وصهيل الثورات، والأغنيات. تهزك بمشاهد الذبح والرقص، والمجون، والسروايل المتسخة بالشراب وكلّ ما يجعل الحياة هنا لا في مكان آخر..

طاهر الزهراني

قصّة حبّ أسطوريّة قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكيّة وتهكّميّة إلى أوروبا ما قبل الحرب العالميّة الأولى، ولكنّها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الّذين وصلوا إلى الشيلي في بداية القرن العشرين.

تُرجمت هذه الرواية إلى 32 لغة وفازت في فرنسا سنة 2001 بجائزة ميديسيس لأفضل رواية أجنبيّة في العالم.

الناشر

Twitter: @ketab_n

الحب والظلال

المؤلّف: إيزابيل اللندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

في سنة 1979 في بلدة «لونكين» على بعد 60 كيلومترا من العاصمة التشيليّة «سنتياغو»، تمّ اكتشاف مدفن سريّ في منجم مهجور، أخفى فيه رجال الدرك جثث 15 فلاّحا من أهالي المنطقة.

من هذه الواقعة التاريخيّة تنطلق إيزابيل اللّندي لترسم عالما من الحبّ والأمل، في مواجهة عالم آخر من العنف والحقد. وكلّ ذلك في أجواء سحريّة تضيع فيها الحدود بين الواقع والخيال، لتشكّل في نهاية المطاف، عملا أدبيّا رائعا، وشهادة تاريخيّة مأسويّة، تروي وقائع جريمة سياسيّة وقصّة تضامن إنسانيّ.

تعتبر هذه الرواية استثناء في تجربة إيزابيل اللّندي كاملة، وعلامة فارقة في أدب أمريكا اللاتينيّة.

الناشر

هذه قصة رجل وامرأة، أحب كلاهُما الآخرَ بكل جوارحه، لينجوا بذلك من حياة مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخيرًا. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن أجل آخرين أودعوني حيواتهم قائلين: «خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح».

إيزابيل اللّندي

Twitter: @ketab_n

صدر أيضا

قلب كلب
المؤلّف: ميخائيل بوغاكوف
البلد: روسيا
ترجمة: أشرف القرقني

حديقة الصخور
المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

نعاس
المؤلّف: هاروكي موراكامي
البلد: اليابان
ترجمة: رمزي بن رحومة

يصدر قريبا

أيام قوس قزح
المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

وردّدت الجبال الصدى
المؤلّف: خالد حسيني
البلد: أفغانستان
ترجمة: منير العليمي

النفق
المؤلّف: إرناستو ساباتو
البلد: الأرجنتين
ترجمة: منير العليمي

لمواكبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا

على تويتر: @MascilianaE

وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب الذي حكم على صاحبه بالإعدام

ثريا مانوتشهري، ليست مجرّد شخصيّة من نسج الخيال، بل امرأة من لحم ودم. إنها كائن بشريّ جرّدته يد المجتمع من كلّ شيء وقضت عليه بالموت رجما، لا لشيء إلاّ لأنّ زوجها أراد التخلّص منها فاتّهمها بالخيانة.

هي دليل إدانة آخر يرفعه الروائيّ والصحفي الإيرانيّ فرايدون صاحبجام في وجه نظام الخميني الّذي أصدر ضدّه حكما بالإعدام سنة 1979 بسبب نقده المستمرّ له، ولكنّ الكاتب المقيم في باريس تمكّن رغم ذلك في فيفري 1987 من التسلّل خفية إلى بلده الأصليّ لمتابعة وقائع تنفيذ حكم بالرجم حتى الموت ضدّ «ثريا مانوتشهري» الّتي اتُّهمت ظلما بخيانة زوجها. وهكذا يتحوّل الكاتبُ شاهدَ عيان على جريمة بشعة في حقّ امرأة انتُهكت إنسانيّتها ولفّها الصمت، امرأة تآمر عليها مجتمع بأسره، وأجبر والدُها على إلقاء الحجر الأوّل في عمليّة الرجم.

ترجمت هذه الرواية إلى أكثر من 34 لغة في العالم، و حُوّلت إلى شريط سينمائيّ ناجح بعنوان «رجم ثريا»، أخرجه قرش نوراسته سنة 2008.

الناشر

9789973833204